كتاب الهلال

قصة حياتي

للأستاذ أحمد لطفي السيد

تقديم

طاهر الطناحي

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

سكرتير التحرير
رمزي سعد

الإشراف الفني
سميحة حسنين

العدد ١٣١ ـ شعبان ١٣٨١ ـ فبراير ١٩٦٢

No. 131 — FEBRUARY 1962

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شا... ب

التليفون :

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمود دياب

بالمستشفى الملكي المصري

...نية
ا... ـ في
سر... ـ في بلاد
اتحـ... ١٣٠ قرشا صاغا
و (با... ـاغا ـ في الامريكتين ٥
دولارا... سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا
صاغا أو

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

قصة حياتي

للأستاذ الجليل

أحمد لطفي السيد

بتقديم

طاهر الطناحي

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

تقـديم
بقلم الأستاذ طاهر الطناحى

فى ١٥ يناير من هذا العام أكمل استاذ الجيل أحمد لطفى السيد التسعين من عمره ·· وقبل اثنى عشر عاما ــ أى فى يناير سنة ١٩٥٠ ·· ــ كنت أزوره فى منزله فدار الحديث بينه وبينى عن أكبر امنياته لوطنه مصر ، وقد قــارب الثمانين ، فقال فى اهتمام ورغبة من أعماق نفسه : « أتمنى لمصر أمنيتين :

ــ الاولى ان ترفع عنها معاهدة سنة ١٩٣٦ التى أصبحت غير ذات موضوع ، وان يتحقق لها الجلاء التام ، ويتوطــد الاستقلال ، ويصان من كل نقص وعبث وريبة ، فان مصر لن يصلح لها حال ، أو يستقر فيها نظــام مادامت هذه المعاهدة قائمة

ــ أما الامنية الثانية ، فهى أن يكون هذا العام (عام ١٩٥٠) عام أعمال لا عام أقوال ، وعام اصلاح لا عام نقاش وجدل ، فان الجدل والمنازعات تؤخر الشعوب · ولنتذكر ماقاله عمر بن الخطاب : « اذا غضب الله على قوم سلط عليهم الجدل ، ومنعهم العمل »

ثم دار الحديث بينى وبينه عما كان يكتبه فى صــحيفة « الجريدة » التى كان يتولى رياستها فى أوائل هذا القرن ، وما كان يطالب به من حقوق لمصر ، وعن أمانيه الوطنية فى ذلك الحين ، ثم ماتحقق منها بعد نحو أربعين عاما ، فقال :

« كنت أطلب لمصر حرية ودستورا ، وتعليما حرا ، وكرامة وطنية ، وتهذيبا خلقيا ، لان الحرية هى الحياة ، بل أعز من الحياة ، وهى لرقى الانسان كالروح للابدان • وقد علمنا التاريخ ان الامة المصرية فى أزمان بعيدة حكمت بالقـــوة القاهرة ، ولم يكن للحكم العلمى فى أمرها نصيب ـ ونريد بالحكم العلمى الحكم المنطبق على قواعد علم السياسة ، كما كان ذلك عند بعض الامم المعاصرة لها ، كحكومات اليونان قبيل الميلاد ، فقد كانت قاعدة حكومة مصر هى «الاستبداد» فى تلك الاعصر الخالية ، فكان مايشرعه الحاكم من القوانين، وما يأتيه من الاعمال ملحوظا فيه مصلحة الحاكم بالذات ، وقد يكون بعضه منطبقا على مصلحة الامة بالعرض ، أو من غير قصد • وكانت الحكومات دائما أجنبية تخالف الامة فى الجنس أو فى الدين واللغة أو فى العادات والاخلاق ، أو فيها جميعا

« كانت الامة بذلك فى غاية التحفظ والاحتراس من أن تخلص لحكومتها اخلاصا حقيقيا •وكانت مضطرة لمصانعة الحاكم ، تظهر له الطاعة بالاقوال والافعال ، ولكن قلوبها عاصية غاضبة كارهة

« بقيت هذه الاحساسات فى الامة أزمانا طوالا متوارثة، فأفسدت كثيرا من الانفس ، وأضاعت الحرية العقلية ، والشجاعة الادبية التى هى طبيعة فى النفوس • وذلك هو ماكنت أنادى به ، وأتمنى الحرية بسببه ، حتى تحققت لمصر

« أما الدستور ، فكنت أطالب به لانه المرقاة التى ترقى به الامة الى الاستقلال الصحيح ، والحرية الكاملة ولانه يقرر سلطة الامة ، ويحميها من استبداد الفرد ، ويضمن الفصل بين كل من السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية

« والاستقلال بغير الدستور ، وبغير الحياة النيـــابية

ناقص • ولا كرامة ولا حرية لشعب لا دستور له ، ومهما قيل فى عيوب الحكومات النيابية ، فهى خير واصلح من أى نوع من الحكومات الاخرى . واذكر ان العلامة «سبنسر» عرضت عليه يوما أعمال البرلمان الانجليزى والحكومات البرلمانية الانجليزية ، فبعد أن راجعها قال : (مهما قيل عن عيوب الحكومة البرلمانية ، ومهما اتهمت به من مختلف التهم ، فانها الحكومة الخليقة ببنى آدم)

« أما مطالبتى بحرية التعليم ، فقد تحققت بوجود التعليم الجامعى ، فان هذا التعليم ينشر الحرية الفكرية ، ويصوغ الامم على ماتهوى من الحياة الحرة الكريمة ، لا على ماتهوى الحكومات والديكتاتوريات المستبدة •• وكذلك ماكنت أطالب به من التهذيب الخلقى والكرامة الخلقية ، فانى أرى ذلك يتحقق فى ظل الحرية • وقد أصبحت أخلاق المصريين فى الجيل الحاضر خيرا منها فى الجيل الماضى • وينبغى ألا نقيس فى هذا الصدد أخلاق الجيل الحاضر على الكمال لنعرف الى أى درجة نحن ، بل الواجب علينا أن نوازن بين حالنا الحاضرة وحالنا الماضية • وحسبنا رجاء أن نكون اليوم أقوم اخلاقا منا بالامس

« كان المشاهد أيام الاستبداد ان دائرة الحياة ودائرة الخوف غير محدودتين ، فجاء الجيل الحالى يؤدى بفضيلته ان الذى يستحى من الله ومن نفسه ومن الناس لا يستطيع أن يكذب •• وقد كان الكذب فى الزمن الماضى أشمل منه الآن، لانه كان الوسيلة الوحيدة للخلاص من وجه الحاكم الظالم الذى يجلد الناس ضربا بالسياط فى غير حد ، ومن غير قانون مكتوب ولا جريمة معروفة

« على أن الاخلاق التى ينبغى أن تكون محلا للنظر ، ومقياسا لتقدم الامة أو تأخرها هى الفضائل الاجتماعية ،

وجماعها يتلخص فى شيئين :

١ ـ حب الحرية . وهو متقدم عندنا عن حالنا فى الماضى، ومن مظاهره مايشتكى منه الآن استعجالا للكمال ٢ ـ وحب العدل ، وقد بدت مظاهره فينا فى مواطن عديدة .. وبالجملة كل مامن شأنه تقوية الروابط بين أفراد الامة الواحـدة ، فهو فضيلة اجتماعية . ولا شك أن تلك الفضائل ان لم تكن معدومة في الزمن الماضى ، فقد كانت كوميض ضئيل تحجب غيوم الظلم الكثيفة »

وانتقل بنا الحديث فى ذلك الحين ـ أى فى يناير سنة ١٩٥٠ ـ عن الصحافة ، فسألته :

ـ لو عدت الى الشباب ، فأى الاعمال تختار ؟

فقال : « أختار الصحافة ، لانى أحبها ، ولانها الاداة التى يمكن ان تحمل ما أريد أن أبلغه للجماهير ، ولانهـا مرآة الرأى العام ، تظهر عليها صورته ولونه ، وهى مقيـاس لدرجـات الاخلاق فى الامة ، ومعرض لحياتها الذاتية والاجتماعية والثقافية والتقدمية . وترى فيها المبـادىء الصالحة التى تحجب فى أدمغة المفكرين ، والعواطف التى تنطوى فى الصدور . فما أصدق هذه المرآة الصافية فى تحصيل الصورة الصادقة للرأى العـام ، وما أبلغها فى توجيه الامة الى الكمالات ، والى ماينبغى لها من سؤدد ورقى»

كذلك كان حديثى مع استاذ الجيـل منذ اثنى عشر عاما ، ولقد أوحى لى هذا الحديث ان اطالبه بأن يروى لى قصة حياته وكنت أهدف الى غرضين :

الاول ـ ان حياة لطفى السيد مرحلة مهمة من مراحل التاريخ المصرى الحديث فى الميادين السياسية والاجتماعية والعلمية ، فقد ساهم فى توجيه السـياسة المصرية ،

والحياة الاجتماعية ، والتربية والتعليم فى مصر توجيهـا وطنيا وقوميا كان له أثره العظيم فيما وصلت اليه مصر من استقلال تام وحرية كاملة ،وتقدم فى التعليم ، وتحقيق لحرية العلم بانشاء الجامعات

الثانى ـ ان قصة حياته تقدم لهذا الجيل الحـاضر صورة صادقة عن الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية فى الجيل الماضى ، وتكشف عن الاحـداث الـكبرى التى شهدها بنفسه ، وكان له فيها مساهمة واضحة . كمـا تقـدم لنا نماذج حية عن الادوار التى قام بها زملاؤه فى الجهاد الوطنى والخدمات العامة فى ذلك الحين

ولقد حرصت أن تبدأ هذه القصة التاريخية النفيسة بنشأة هذا الرجل العظيم فى قريته « برقين » من أعمـال مديرية الدقهلية ، وبين أهله وعشيرته . وقد روى فى هذا الكتاب كيف بدأت حياته وتعليمه فى هـذه القرية ، ثم انتقل منها الى المدارس النظامية فى سن العاشرة ، وكيف طوى مرحلة التعليم الابتدائى فىمدرسة المنصورة ،ومرحلة التعليم الثانوى فى المدرسة الخـديوية ، ثم كيف قضى دراسته فى مدرسة الحقوق حتى حصـل على شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤ م . وكيف بدأ اشتغاله بالسياسة وهو طالب فى الحقوق . ثم كيف اشتغل بوظيفة « وكيل نيابة » فترة قصيرة من الزمان ، استقال بعدها ، وعمـل بالمحاماة فترة اقصر منها زهدته فى هذه المهنة ، وصرفته الى الجهاد السياسي ،وممارسة الصحافة كرئيس لتحرير صحيفة « الجريدة » .. وفى هذه الصحيفة التى عاشت من ٩ مارس سنة ١٩٠٧ الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٤ كان له دور عظيم فى توجيه السياسة الوطنية توجيها جديدا

فقد كانت سياسة زعماء مصرفىذلك الحين وفى مقدمتهم مصطفى كامل ترمى الى تدعيم الجامعـة العثمانية ،

ومحاربة الاحتلال الانجليزى عن طريق التبعية العثمانية.
وكان هناك فريق من رجال مصر وكتابها المعروفين يدعون الى جامعة اوسع نطاقا فى ذلك الحين من الجامعة العثمانية، وهى الجامعة الاسلامية . وكانت مصر فى القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين عثمانية النزعة ، وكان من الدعاة لهذه الفكرة فى مصر وغير مصر : السيد على يوسف صاحب المؤيد ، والسيد رشيد رضا صاحب المنار ، وجرجى زيدان صاحب الهلال ، والسيد عبد الله نديم وعبد الله فكرى ، وابراهيم المويلحى ، وفارس الشدياق، والشيخ على أبو النصر ، وعبد الحميد الرافعى ، وعبد الرحمن الكراكبى واديب اسحاق . وكان زعيم هذه الدعوة السيد جمال الدين الافغانى الذى قال عنه جرجى زيدان فى كتاب « مشاهير الشرق » :

« ان الغرض الذى كان يصوب نحوه اعماله ، والمحور الذى كانت تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام ، وجمع شتات المسلمين فى صورة دولة اسلامية فى ظل الخلافة العظمى »

كانت سياسة زعماء مصر فى ذلك الزمان تتجه هذا الاتجاه ، وكان البعض منهم يعتمد فى محاربة الاحتلال البريطانى على بعض الدول المنافسة لبريطانيا فى الاستعمار كفرنسا ، فلما تولى أحمد لطفى السيد صحيفة «الجريدة» فكر فى هذه الاوضاع التى قامت عليها السياسة المصرية، وخرج من هذا التفكير بسياسة جديدة هى « سياسة مصر للمصريين » واعلن فى أول مقال دبجه فى صفحتها الاولى ان هذه « الجريدة » صحيفة مصرية تدافع عن مصالح المصريين ، فقال :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها ارشاد الامة المصرية الى اسباب الرقى

الصحيح ، والحض على الاخــــذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والامة بتبيين ما هو خير لها وأولى ، تنقد أعمال الفرد واعمال الحكومة بحرية تامة . أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والافراد فى اشخاصهم أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم وهو الامة»

وقد كان أحمد لطفى السيد أول المنادين باستقلال مصر التام بعيدا عن أية دولة اخرى وان كان الزعيم مصطفى كامل قد جاهد لاستقلال مصر التام غير ان نزعته المصرية خصوصا فى أوائل جهاده كانت تسير الى جانب نزعتــــه العثمانية . وقد تابع لطفى السيد دعوته فى هذه السبيل حتى كان لها أثرها فى سياستنا الوطنية ٠ وفى ذلك يقول:

« أن علينا نحن المصريين ان نترك فرنســـا وانجلترا والدولة العليــة ، ولا نعير ســياسة الخلاف ولا سياسة الوفاق أية أهمية . وعلينا ان نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور وحقنا فى الحرية

« ولابد لنا من ذلك ومن عزة تربأ بنا ان نطلب من غيرنا ان يأتى ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى كأننا نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام »

ثم يتناول فى مقالاته فى الجريدة عقيدة الاســـتقلال : وأساسها القومية الوطنية فيقول :

« أن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد القـــومية الوطنية ــ نريد الوطن المصرى ــ والاحتفــاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه ، والانجليزى على قوميته ــ لا أن نجعل انفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يســـمى بالجامعة الاسلامية . تلك الجامعة التى يوســـع بعضهم معناها فيدخل فيها ان مصر وطن لكل مسلم

« أما اذا كان معنى الجــامعة الاسلامية مقصورا على

وجوب ائتلاف بين امة وجارتها على المعاونة المتبادلة وعلى الارتقاء ، فذلك حسن مفهوم . بشرط ان يكون العقـــد متبادل المنفعة لا مقصورا على أحد الطرفين دون الآخر »

ثم يقول :

« ويجب الا نقع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت اذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ، ومرة أن الدولة العلية ستقوى . وبحقنا عليها تسفك دماء ابطالها لتخرج الانجليز من بلادنا . ثم هى بعد ذلك تتركنا لانفسنا احرارا نتصرف كما نشاء .. ان من الواجب ان نبعد بالامة عن هذه الخيالات الكاذبة، ونوجهها الى ان تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال » !!

كانت دعـوة لطفى الســيد فى ذلك الحين ، ترمى الى تحقيق الشخصية المصرية والاستقلال المصرى ، والمنفعــة المصرية الخالصة بعيدا عن اى نفوذ غير مصرى . وقــد جاهد طول حياته السياسية فى هذه السبيل ، كما جاهد فى سبيل الحرية والكرامة الوطنية . وكان فى الصف الاول من الزعماء الذين سعوا بقلمهم وعملهم للوصول الى حقوق مصر فى الحرية والاستقلال التام . وكان من أول العاملين لتأليف الوفد المصرى فى سنة ١٩١٤ م ثم فى سنة ١٩١٨م وكان من أبرز أعضاء هذين الوفدين ، كما ترى فى صفحات هــذا الــكتاب . وكانت الحــرية فى جهــاده هى أعظم الاهداف التى يجب ان يسعى لها الانسان لتحقيق انسانيته . وهى بلا شك الغذاء الضرورى لحياتنا ، ولو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفــوق الرضى ، ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجـله نحب الحياة ليس هو شبع البطون ، بل هو شبع العقول والنفوس والافكار . ولا ريب أن عقولنا ونفوسنا وأفكارنا لا تشبع ولا ترضى الا بالحرية التى تحققت مع الاستقــلال والعزة والكرامة فى عهدنا الجديد

طاهر الطناحى

الفصل الأول

نشأتي الأولى

فى قرية مصرية

نشأت فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لهـا الا الوطن المصرى ، ولا تعتز الا بالمصرية ، ولا تنتمى الا الى مصر.. ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور .. وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد

وقد ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ م بقرية « برقين » من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية . وهى قرية صـغيرة كان تعـدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس . ويشاع بين أهل الريف أن اسـمها « النـزلة » وربمـا سميت باسم « برقين » الفلسطينية . وقـد تضـاعف سكانها ، فأصبح عددهم الان نحو ألفى نفس . وهم زراع ماهرون ، مشهورون بالجد والنشاط والاستقامة ، وقد اعتادوا أن ينطقوا القاف « جافا » ، والجيم جيما معطشة كسائر أهالى مركز السنبلاوين ، وما زالت هـذه اللهجة تغلب على فى حديثى

وكان والدى « السيد باشا ابو على » عمدة هذه القرية ، كوالده « على أبو سيد أحمد » . وقد كان يجيـد حفظ القـرآن الكريم كله . وعـرف بشخصيته المهيبة ، وقوة شكيمته ، وعدالته فى معاملته ، وعطفه على أهـل قريته وغيرهم . وأذكر انه ما قسا يوما على ، ولا وجه الى كلمة نابية أو عبـارة تؤلم نفسى ، بل كان ــ طيب الله ثراه ــ

عطوفا حكيما فى تربية أبنـائه ، يعنى بالقـدوة الحسنة ، وحسن التوجيه والارشاد

ولما بلغت الرابعة من عمرى ، أدخلنى كتـاب القرية ، وكانت صاحبته سيدة تدعى «الشيخة فاطمة» . فمكثت فيه ست سنوات تعلمت فيها القراءة والكتابة ، وحفظت القـرآن كله . وكنت أجلس مع زملائى على الحصـير ، ونصنع الحبر بأيدينا . والى هذه السيدة يرجع فضـل تنشئتى الاولى فى تلك السنين

ضرب العمد .. والاعيان !

وقد كنت فى العاشرة حينما أتممت حفظ القـرآن فى هذا الكتـاب ، فاشـترى لى والدى « مهرة » من باديه الشام لم تألف رؤية قطـار السـكة الحديدية . فكنت أركبها للنزهة ولقضاء بعض الاعمال . وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسسنى مكروه . وذات يوم امتطيت المهرة وذهبت الى عزبة لنا فى «طرانيس العرب» . وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى ، فسرت بها على طريق السكة الحديدية .. وبينما انا سـائر بها ، اذ فاجأنى القطار فوثبت من فوقها وتركتها وحـدها فجرت مسرعة حتى عادت الى برقين . فـذعر أهـلى ، وهاجت القرية ، وظن الجميع أنى أصبت بمكروه . وكنت وقتئذ وحيد والدى ، فزاد ذلك من اهتمامهم وقلقهم . وما كاد القطار يقترب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض ، فاطمأن بالهم ، ثم أخبرهم السـائق بمـا فعلت ، فبعثوا الى بحمار عدت عليه الى بلدتى . غير أنى خشيت أن يعاقبنى والدى ، فهربت خوفا من « علقة » تصيبنى . وجاء رجل من أهل القرية يدعى « عوض بدران » يهنئه بسلامتى ويقول له : « بركة عيشـك يا بو على » . وهو

يعنى « الحمد لله على السلامة » !

وجيء بي الى والدى وانا خائف اترقب ، ولكنه ـ كعادته معي رحمه الله ـ ربت على كتفي قائلا : « لا تخالف امري يا ولدى ، ولا تسر مرة اخرى على السكة الحديد » . فاثر ذلك فى نفسي ، وازددت اعجابا به وحبا له

وعلى ذكر « العلقة » ، اذكر ان الضرب فى ذلك الزمان كان مباحا ، حتى ضرب العمد والاعيان ! وكان هذا بعض ما يحدث فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد .. وقد رأيت بنفسي غير مرة ، اذ كان لوالدى صديق يدعى احمد كامل بك ، وكان مفتش « تفتيش شاوى » . فكنت ـ وانا بمدرسة المنصورة ـ اذهب الى بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشا ، والبيك المفتش قاعدا فى صدره وقد وقف اثنان من « القواسة » يحملان الكرباج و « الفلقة » لضرب العمد الذين يتأخر أهالى قراهم فى دفع الايجار . وكانت هذه طريقتهم فى ذلك الحين .. فانظر كيف كانت الحال بالامس ، وكيف هى اليوم ؟

نوبار باشا : مسلم !

بعد ان اتممت حفظ القرآن الكريم ، رغب والدى فى ان يبعثنى للدراسة فى الازهر ، وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا ابراهيم باشا ادهم ـ مدير الدقهلية سابقاً ـ فدخلت لتحيته ، فسأل والدى الى أين يبعث بى للدراسة ، فأجاب : « الى الازهر الشريف ان شاء الله » .. فأشار عليه أن يبعث بى الى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها . وقد عين المرحوم أمين سامي باشا ناظرا لها . وكان معروفا بالدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى اى

تقصير يبدو من احد التلاميذ ، ومع ذلك فقد كنا نحبه ونحترمه ونشعر بأبوته الرحيمة .. وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت بالسنة الثانية بامتحان ، لانى كنت عدا حفظي للقرآن الكريم ـ اعرف قواعد الحساب الاربعة، و « سورة الفدان » من صراف بلدنا « المعلم حنين » وكان يلبس جبة وقفطانا

واذكر على سبيل الفكاهة أن احدهم سأله يوما عن رئيس الوزارة نوبار باشا ، فقال له : « قول لى يا معلم حنين .. نوبار باشا مسلم ؟ »

فأجابه خبثا أو بسلامة نية : « نعم .. مسلم وموحد بالله » !!

العدس والفول .. فقط !

وكانت سنة ١٨٨٢ م حينما التحقت بمدرسة المنصورة الابتدائية ، ولما اختلطت بزملائى التلاميذ شعرت بعد ايام بشيء من القلق ، لانهم كانوا يضحكون منى حينما انطق القاف جافا كأهل بلدتى ! .. هذا الى أن الضرب والحبس فى « الزنزانة » كانا من أنواع العقاب فى هذه المدرسة ، وقد رأيت فى الايام الاولى تلميذا وضعت رجلاه فى الحديد لانه ارتكب ذنبا . وكانت روح الجندية هى السائدة على نظام المدارس فى ذلك الحين .. وكنا نخرج كل يوم جمعة « طوابير » نطوف فى شوارع المدينة ثم نعود الى عنابرنا .. وكانت عيشة المدرسة عيشة شظف وخشونة . وقد كانوا فى وجبة الفطور يقدمون لكل تلميذ رغيفا فقط ، وعليه أن يشترى من جيبه الخاص ما يأتدم به من جبن او حلاوة . وكان العدس أو الفول هو وجبة الغداء والعشاء . وفى بعض أيام الاسبوع يقدمون لنا شيئا من اللحم والفاكهة

وجـــاء والدى كعادته لزيارتى يوم الجمعة ، فأبديت له أسباب تعبى وضيقى من هذه المدرسة ، وقلت : « اننى غير مبسوط : واخشى ان أنسى فيها القرآن الكريم فيعاقبنى الله بالنسيان ، وقد قال تعــالى (وكذلك أتتك آياتنــا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) ... » فابتســم رحمه الله وقال لى : « وانت تنسى القرآن ليه ؟. اقرا كل يوم جزءا منه وانت لاتنساه ، وخليك فى المدرسة » . فاستمعت لنصيحة والدى ، ومكثت بالمدرسة . وقد حبب الى البقاء فيها أستاذ اللغة العربية « سيد أفندى محمد » ، وكان مشهورا بالقدرة والتفوق فى تربيته وتعليمه . وكان تلاميذه اقوى زملائهم فى اللغة العربية ، وعلى يديه نبغ كثيرون

من المنصورة .. الى الخديوية !

امضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وأتممت تعليمى الابتدائى فى سنه ١٨٨٥م . ولم تكن شهادة الابتدائية ولا البكالوريا قد وجدتا بعد ، بل كان الانتقال من مرحلة الى أخرى بالنجاح فى امتحان المدرسة . وكان بمدرسة المنصورة فرقة تجهيزية واحدة فألغيت فى ذلك العــام ، واضطررت للســفر الى مصر لالتحق بالمدرســة الخديوية

ولقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصبحة صديقى وأخى عبد العزيز فهمى ، من أول يوم التقيت به فى عنبر المدرسة . وذلك فى مناقشة أثيرت بيننا وبين بعض الطلبة فى النحــو ، فاتفق رايه ورايى ضــد الاخرين ، ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين ، ولا اذكر ان أحدنا قصر فى حق صديقه أو قال عنه ما يسوؤه ، أو وجه اليه كلمــة تؤلمه ، ولو على سبيل المزاح !

ولما انتظمنا فى المدرسة ، رتبونا بالطول ، فقصار القامة

فى السنة الاولى ، والاطول منهم فى السنة الثانية .. وهكذا . وكان وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقوب باشا ارتين وناظر المدرسة صادق بك شنن . وكان هذا الناظر معروفا بحبه لاهل البيت ، واذا وبخ احدا قال له : « يا يزيد ! » وقد عز على صديقي عبد العزيز فهمي باشا وقد أمضى سنة فى تجهيزية مدرسة طنطا ـ أن يكون تلميذا فى السنة الاولى ، فاحتج على هذا الوضع ، فقبل احتجاجه بصعوبة ونقل الى السنة الثانية . ولما لم تكن شهادة البكالوريا قد وجدت فى ذلك الحين ، فقد شاء عبد العزيز فهمي وهو فى السنة الثالثة أن ينتقل الى مدرسة الحقوق ، فذاكر فى الاجازة لامتحان القبول بها ونجح . أما انا فبقيت فى الخديوية الى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ م وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام

عصر « الفتوات » !

وفي مدسة الخديوية عرفت عيشة الترف بالنسبة لمدرسة المنصورة ، فكنا نأكل بيضا ولحما وحلوا وفاكهة كل يوم . ولم تكن نفقاتها تزيد على نفقات مدرسة المنصورة. وكانت فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز، هى ومدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف . وكان طلبة المهندسخانة يختلفون عنا بزيهم العسكرى الكامل ، ويحملون الى جانبهم سيوفا ، فكانوا يشيعون بمنظرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الاخرين وبخاصة الغرباء. وكان مما يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان . فقد كان فى كل حارة عصابة على رأسها « فتوة » .. وكثيرا ما كانت تحدث معارك دامية بين هذه العصابات .. وقد امتدت عدوى الفتوة الى الطلبة انفسهم حتى

ظهر بيننا طالب « فتـوة » يدعى « منصـور » كان يعلم زملائه « التحطيب » . ولهذا كنت أوثر البقاء في المدرسة أيام العطلة الاسبوعية . وقد مكثت في أول عهدي بالقاهرة ثلاثة أشهر لا أخرج من الخديوية ، قرأت فيهـا كتـاب « أصل الانسان » لداروين ، الذي ترجمه المرحوم «شبلي شميل » . وحفظت كثيرا من المعلقات وأشعار بعض كبار الشعراء ، وكان من مدرسي اللغة العربية في هذه المدرسة : الشيخ حسين والى ، والشيخ محمـد حسنين البولاقي والد المرحوم أحمد حسنين باشا . وكنا وقتئذ نقرأ كتابا مطولا في النحو لمؤلف يدعى الشيخ محمود العالم

وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شهـر اختبـارا لتلامذتها ، فرغب تلامذة البكالوريا ان تعفيهم المدرسـة من الاختبارات الشهرية لينصرفوا الى المذاكرة للامتحان العام ، واجمع رأيهم على أن يطلبوا الى وزير المعارف على باشا مبارك اعفاءهم منها ، واختاروني للذهاب لمقابلته ، فذهبت اليه ، وكان من عادته ان يضع سبورة في مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة في حاجة يريدها ،ولا يجيبه الى حاجته الا اذا أجابه اجابة صحيحة فيمايختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية . فلمـا مثلت بين يديه طلب مني أن أقف أمام السبورة لابرهن على النظرية الهندسية التي حاصلهـا « ان مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخـرين » . فأثبتها أمامه ، فأجابني الى الرغبة التي أوفدني اليـه زملائي من أجلها . وقد كان رحمه الله أبا للتلاميذ ، محبا لهم ، عطوفا عليهم . وكثيرا ما كان يختلط بهم في وقت الفراغ ، ويفسح لهم منزله للزيارة . وكان منـزله في الحلمية الجديدة بشارع « نور الظلام » مقصدا لاهـل العلم وطلابه

الى مدرسة الحقوق

وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا ، فلم أكن من المتقدمين ولا من المتأخرين . على أنى كنت متفوقا فى العلوم العربية والرياضيات حتى لفت ذلك صابر باشا صبرى ، وأحمد كمال بك ، فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا ، فنصحانى أن أدخل المهندسخانة، فأجبتهما الى ذلك ، غير أنى قرأت فى الاجازة ان المهندسخانة تقبل ساقطي البكالوريا فلم أجد من كرامتى أن التحق بهذه المدرسة . وتغلب فى نفسى نزق الشباب والعزة الكاذبة على حبى للرياضيات ، فقلت لأبى : « أنا لا أرغب فى المهندسخانة ، ولا أعرف أية مدرسة توافقنى ، وأجدنى فى حيرة من ذلك » .. فقال والدى : « علينا بالقرعة » . فأجريناها فخرجت مرتين على مدرسة الحقوق !

التحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩م . وكانت المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية حقوق » و « كلية آداب » معا .. فقد كان الطلبة يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية علوما أدبية كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى ، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة ، والمنطق. وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات . وكان وكيلها عمر لطفى بك ، وكان يدرس لنا قانون العقوبات ومن أساتذتها مسيو تستو مدرس القانون المدنى والاستاذ شارل ولوزينا والشيخ حسونة النواوى الذى تولى بعد ذلك مشيخة الازهر ، وحفنى ناصف بك وسلطان بك محمد . وكنت فى ذلك الحين أسكن فى حارة (عمر شاه) التى يسكن بها الشيخ حسونة النواوى ، وكنت أتردد على منزله ، وكثيرا ما يبعث الى لأقرأ له درس الفقه الذى كان يلقيه فى الازهر فى بكرة الغد

وفى مدرسة الحقوق عرفنى الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل ، وكانا مع الشيخ عبد الكريم سليمان فى لجنة امتحان العلوم العربية ، والأذكر انه فى لجنة امتحان السنة الثالثة طلب منا أن نكتب فى موضوع « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » ، فتناولت الموضوع من جميع نواحيه ، فكتبت المذاهب الاربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون العقوبات ، ثم نفضت كل مذهب منها ، وخلصت فى النهاية الى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى ، لان كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق وانما الذى يعطيه هو العقد فقط ، وليس هناك اى عقد بين أية حكومة وبين امتها !

ولما خرجنا من الامتحان ، وذكرت ذلك لزميلى محمود عبد الغفار ، أسف جدا لما فعلت ، وقال لى : « يا لطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينى فين ! »

وقد القى فى روعى انى اخطأت فى هذا العمل ، ووثقت انى سآخذ « صفرا » على هذا الجواب ، ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهى وجلست أمام اللجنة قال لى الشيخ محمد عبده : « انى أهنئك بما كتبت وقد اعطيناك أعلى درجة ، لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الانشاء ! »

واظن أن هذه الكلمة هى التى شجعتنى على أن أنشىء فيما بعد « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفور لهم اسماعيل صدقى (باشا) ، واسماعيل الحكيم (بك) ، وعبد الهادى الجندى (بك) ، وعبد الخالق ثروت (باشا) ومحمود عبد الغفار

ولقد هويت منذ كنت طالبا فى الحقوق الكتابة فى الصحف ، فعاونت فى جريدة « المؤيد » بترجمة

تلغرافاتها الخارجية ، عندما كان الاستاذ محمد مسعود بك مريضا

معركة لغوية !

واذكر ان المرحوم الشيخ حمزة فتح الله اللغوى المعروف استشهد يوما على صرف اسم «عمر» ببيت هو :

الى عمر بن أبى غبقة
بيليل يهدى ربحلا رجوفا

فاستنكر ذلك اللغوى الكبير الشيخ محمد الشنقيطى هو وجماعته ومنهم الشيخ البكرى ، واحمد زكى باشا . وكتب الشنقيطى مقالا فى جريدة « المقطم » يتحدى فيها الشيخ حمزة فتح الله ، وينفى وجوده فى الشعر العربى ، ويقول : « لو دلنى احد على مكان هذا البيت واسم قائله لأهديت اليه عشر نسخ من لسان العرب » . وكان هذا الكتاب قد طبع حديثا ، فرد عليه الشيخ حسن الطويل . . وكان أستاذا بدار العلوم ، فقال له أن صحة البيت هكذا :

الى عمرين الى غبقة
فيليل يهدى ربحلا رجوفا

وان قائله صخر الهذلى ، وانه فى صفحة كذا من لسان العرب ، وطالب الشنقيطى بالجائزة . فكتب الشيخ الشنقيطى يقول : « وقف لنا الشيخ حسن الطويل بين السماطين يطالبنا بالجائزة كأنما أعددنا الجائزة لمن يخطىء لا لمن يصيب » ، فكتب الطويل يقول :

« روى البيت خطأ فصححناه ، وزيد الصحيح هو عينه زيد المريض »

فكتب أحمد زكى باشا ينصر الشيخ الشنقيطى على الشيخ الطويل . وفى ذلك الحين قابلت الشيخ الطويل

ومعه سلطان بك محمد ، فسلمت عليهما ، فقال لى الشيخ الطويل : « لماذا لم تنصرني ؟ » فكتبت رسالة فى «المقطم» نظرت فيها الى النزاع من ناحيته القانونية ، وانتصرت فيها للشيخ الطويل وقلت انه يستحق الجائزة ولكن الشنقيطى ابى أن يدفعها ! ..

فى استانبول

وفى صيف سنة ١٨٩٣ م سافرت الى استانبول ، وكنت ما ازال طالبا بالحقوق ، فالتقيت بزميلي وصديقى المغفور له اسماعيل صدقى (باشا) . وكان الخديو عباس حلمى الثانى يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما نمثل الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديو

وذات يوم كنت سائرا مع « اسماعيل صدقى » نتنزه على « كوبرى غلطة » . وكان به شيء من القدم والتهدم ، فأخذ « اسماعيل » يتساءل : اين ميزانية الدولة ،وينتقد بطء التعمير والاصلاح . ويظهر انه كان يسير وراءنا ـ دون أن نشعر ـ جاسوس عثمانى ، كما كانت الحال فى ذلك الزمان ، فأبلغ رؤساءه هذا الانتقاد

وبعد بضعة أيام ركبنا معا حصانين ، وذهبنا للتفرج فى « بيوكدره » ولما عدنا الى المرفأ لنركب « الحميدية » الى استانبول قال لى اسماعيل صدقى : « ارجو أن تنتظرنى حتى أمر بأمين باشا » فانتظرته على ضفة البوسفور حتى عاد من زيارته ، فوجدته ممتقع اللون واجما حزينا ، فسألته عن امره ، فأجاب : « سأقول لك متى دخلت المركب » . ثم قال لى ونحن فى «الحميدية »: « ان أمين باشا كان فى « المابين » (المعية السنية) فسمع من رجاله ان شابا مصريا اسمه اسماعيل صدقى تكلم ضد الدولة العلية وسياستها » . وكان جزاء من يثبت

عليه ذلك أن ينفى فى بغداد حتى يموت .. ولكن أمين باشا أجابهم :

« ان هذا الشاب الذى تعنونه ليس غير تلميذ صغير فى المدرسة لا يعبأ بكلامه »

فقالوا له : « اذن مادام يهمك ، فليسافر فى أول سفينة تقوم من استانبول » . فسافر اسماعيل صدقى فى صباح اليوم التالى ، ووصل الى مصر فى ١٢ يوما

اما أنا فبقيت فى استانبول مدة اجازة الصيف أتتلمذ على جمال الدين الافغانى

الفصل الثانى

اشتغالى بالسياسة

تتلمذت على جمال الدين ؟

في اليوم التالى لسفر اسماعيل صـــدقى (باشا) ـ وكان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٣ ـ مررت بأحد مقــاهى الاستانة ، فلقيت فيها بعض المصريين ، وفيهم سعــد زغلول بك (باشا) وكان وقتئذ قاضيا بالاستئنــاف ، والشيـخ على يوسف ، وحفنى بك ناصف ، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الافغــانى ، فصحبتهم الى منزله ، وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكنى لم أكن قد اجتمعت به من قبل . وكان قد ذاع صيتــه فى الشرق الاسلامى كمصلح دينى ، وفيلسوف جليل ، وسيــاسى خطير ، ونزل مصر سنة ١٨٧١ ، وأقام بها حتى أواخــر سنة ١٨٧٩ ، وعلى يديه نبغت طائفة من العلماء وكبــار الكتاب فى القطر المصرى ، وقد رحــل الى الهند وايران والعراق وأوربا ، ثم اقام فى أواخر حياته بالاستانة ، فنزل ضيفــا على السلطان عبــد الحميــد فى منــزل يدعى (المسافرخانة) موفور العيش ووسائل الاطمئنان ، وقد قوبل من العلماء ورجال السياســة الاتراك بالحفاوة والاكرام . وكان يخرج عصر كل يوم للرياضة والنزهة فى أطراف المدينة على عربة سلطانية خاصة

ولما ذهبت اليه مع اخوانى ، ألفيته رجلا مهيب الطلعة قوى الشخصية لا نظير له بين أهل عصره فى علمه وذكائه والمعيته . وكان أبيــض اللون ، ربعة ، ممتـلىء البنية ، أســود العيــنين ، نافــذ اللحظ ، خفيف العارضــين ،

مسترسل الشعر ، جذاب المنظر . يلبس عمامة وجبة وسراويل على زى علماء الاستانة

وأظهر ما رأيته فيه سعة الاطلاع ، وقوة الحجة والاقناع ، فكان يستوى فى مجلسهالطالب مثلى وأساتذته الحاضرون

وفى اليوم التالى ذكرت لسعد زغلول رغبتى فى التلمذة على السيد جمال الدين ، وسألته عن السبيل التى أسلكها لأكون تلميذا له ، فأجاب سعد :

ـ اذهب اليه ، واطلب منه ذلك

فقصدت اليه ، فما كدت أقبل عليه حتى قام لتحيتى كالمعتاد ، فقلت له :

ـ أنا لست زائرا ، ولكنى تلميذ ...

فسر رحمه الله بذلك ، وأخذ على عهدا بأن الازمه طول اقامتى بالاستانة .. وقد فعلت ..

اشرب يا ولدى .. اشرب !

واهم ما اظن أنى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة انه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى الى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه الا اذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وماخطر لها من خاطر

وكان جمال الدين ميالا للسياسة يتحدث عنها كثيرا ، وكأنه يريد ان يقيم فى الشرق دولة تضارع انجلترا فى الغرب

وكان رحمه الله شديد النقمة على الانجليز لسياستهم فى البلاد الاسلامية ، وهدمهم لدول الاسلام ، ولما وجده من اعتداءاتهم عليه ، واخراجهم له من الهند ، ودسهم له فى

مصر حتى اخرج منها فى عهد الخديو توفيق . وهو الذى كان يتمتع فى عهد الخديو اسماعيل بكرم الضيافة المصرية، وكان يجرى له راتب شهرى .. وقد روى لى قصة سعيه الحثيث فى ذلك العهد للافراج عن لطيف سليم باشا ومن معه من الحبس حينما قاموا بالثورة العسكرية فى مدة الوزارة المختلطة

وكان رحمه الله يقدر تلميذه « الشيخ محمد عبده » ، واذا ذكر اسمه فى مجلسه اعرب عن احترامه له ، وتقديره لذكائه وعلمه . وكان يعيب على المصريين تخاذلهم وتفرقتهم ونزاعهم وسط ما يلم بهم من الحوادث الجسام .. ويردد قوله : « انفق المصريون على الا يتفقوا »

وكان طيب الحديث ، لطيف المعشر ، حلو الفكاهة . واذكر من حوادث مزاحه الطريف أنه قدم لى يوما سيجارة، فدخنتها ، فاعطانى الثانية ، فاعتذرت ، فقال لى :

ــ الا ترى أن الانسان منذ نشأته الى الان يأكل ويشرب، ويلبس ، على خلاف فى الصورة فى العصور المتغيرة ، ولكن الجوهر واحد .. فما الذى جد عليه حتى علا نفسه فى القرنين الاخيرين ، فاستكشف البخار والكهرباء .. الخ .. لا اظن انه جد عليه شيء الا شرب الدخان ... اشرب ياولدى اشرب ..! »

جمعية سرية لتحرير مصر !

اتممت الدراسة سنة ١٨٩٤ وحصلت على شهادة ليسانس الحقوق، فعينت فى صيف ذلك العام انا وجميع زملائى كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر وكان تعيينى فى هذه الوظيفة لاول مرة بالقاهرة ، ثم نقلت الى الاسكندرية ، فمكثت بها أشهرا ، عينت بعدها

سكرتيرا للافوكاتو العمومي حسن باشا عاصم . ثم انتدبت معاونا للنيابة ، ببني سويف . وسرني ذلك ، لاني وجدت بها صديقي عبد العزيز فهمي (باشا) وكيل النيابة وقتئـذ . وفى سنة ١٨٩٦ عينت وكيلا للنيابة بمرتب عشرة جنيهات. وكان صديقي عبد العزيز ما زال بها ايضا ، فاقمنا معا فى هذه المدينة . وكنا نفكر فى حالة مصر ، وما تعانيه من الاحتلال البريطاني . وفى ذلك العام انشأنا جمعية سرية غرضها « تحرير مصر »

وكانت هذه الجمعية مؤلفة من : عبد العزيز فهمي ، واحمد طلعت رئيس النيابة (احمد طلعت باشا فيمابعد)، وحامد رضوان وكيل النيابة ، ومحمد بدر الدين وكيل النيابة ، والدكتور عبد الحليم حلمي ، وانا .. ثم ضممنا اليها على بهجت بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا

حزب وطني برياسة الخديو !

وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصطفى كامل ، فقال لي : « ان الخديو عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية واغراضها . واظن انه لا تنافى بينها وبين ان تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو »

فاجبته : « لا مانع عندى من ذلك » . وابلغ مصطفى الخديو هذا القبول ، واستأذن لي فى مقابلة سموه . وذهبت اليه ، فتحدث معي سموه عن اغراض الحزب الذى يريد تأليفه ، وطلب مني ان اسافر الى سويسرا لكي اكتسب الجنسية السويسرية ، ثم اعود الى مصر لاحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطاني . والسبب فى اختيار سويسرا دون اية دولة ، ان التجنس بجنسيتها قريب

المنال لا يكلف الراغب فيه الا اقامة سنة واحدة بها
وكان الخديو عباس يظن وقتئذ ان فرنسا تستطيع أن تؤلب الدول على انجلترا لتجلو عن مصر ، والذى أطمعه فى ذلك زيارة « المسيو ديلونكل » النائب الفرنسى لسموه ووعده له بذلك

وبعدما خرجت من مقابلة الخديو عباس ، اجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، والفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ، وأعضاؤها: مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان «والد أمين عثمان باشا» . ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) ، وأنا ..

ومن طرائف ما يذكر عن هذا الحزب ان الخديو كان اسمه بيننا : « الشيخ » ومصطفى كامل « ابو الفداء » ، وانا « أبو مسلم » ...!

اقامتى فى جنيف

سافرت بعد ذلك الى جنيف لاكتسب الجنسية السويسرية حسب الاتفاق ، وكان معى كتابان من على بهجت بك الى المستشرق « ماكس فان برشم » والاستاذ « نافيل » الاثرى المعروف . فلما قابلت الاستاذ «ماكس» سهل لى استخراج جواز الاقامة ، وادخلنى ندوة الفنانين، وكان مكلفا من الحكومة الفرنسية بجمع الاثار الاسلامية فى مصر والشام ودراستها ، ووضع مؤلف بها ، فاخذت اقضى معه وقتا فى مساعدته على استجلاء معانى النقوش العربية التى جمعها من الاثار . واما المسيو نافيل الذى كان مشهورا بعلاقاته برجال السياسة فى سويسرا وفى الخارج ، فقد جاءنى فى الفندق وبعد خمسة عشر يوما ، وجرى بينى وبينه حديث طويل انتهى بقوله :

ـ لا تظن ان اوربا تساعدكم على انجلترا .. وارى ان لا يحرر مصر الا المصريون ..!

مع الشيخ عبده بجنيف

مكثت في جنيف سنة ١٨٩٧ اقضى الاشهر الاولى في الدراسة وحضور بعض المحاضرات بالجامعة ، واتعلم « الشيش » في اوقات الفراغ حتى اقبل الصيف ، فجاءني فيها الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم امين ، فلم اخبرهم بمهمتي السياسية . وكان قاسم وقتئذ يؤلف كتابه « تحرير المرأة » ، فقرأ علينا فصولا منه مدة اقامته بيننا . ثم سافر مع سعد زغلول من سويسرا ، وبقي معي الشيخ عبده . وكانت جامعة جنيف قد اعدت فصلا صيفيا لدراسة الاداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس فدخلت فيه .. ولما ذكرت ذلك للشيخ محمد عبده احب ان يحضر دروسه ، فقدمته الى مدير الجامعة باعتباره قاضيا في الاستئناف واحد مديري الازهر ، فقبله بهذا الوصف فمكثنا نتردد على هذه الدراسة

والد محمد فريد يبكي !

واذكر انني والشيخ محمد عبده في جنيف ذهبنا لزيارة محمد ثابت باشا الذى كان مهردارا للخديو اسماعيل ـ اى حامل اختام الخديو ـ وهو يساوى رئيس الديوان ـ وكان معه اثناء الزيارة احمد فريد باشا والد محمد فريد ، وكان ناظرا للدائرة السنية ، ومن كبراء مصر المعدودين . فلما استقر بنا المقام اخذ فريد باشا يشكو ابنه الى الشيخ محمد عبده ، ويبكي ، وكان وقتئذ مريضا ، ويقول للشيخ :

ـ هل يصح يا سيدى الاستاذ ان يهزئني محمد فريد

فى آخر الزمن ، ويفتح دكان أفوكاتو (مكتب محام) ؟ !

وكان محمد فريد قبل ذلك وكيلا للنيابة ، وحدثت واقعة شركة التلغرافات التى اتهم فيها الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ، وقدم الى المحاكمة من أجل نشر هذه التلغرافات فى جريدته . وحضر محمد فريد الجلسة ، فبدرت منه الفاظ ضد الحكومة عدتها جارحة لها ، فامرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته بعد استشارة رياض باشا ، وفتح مكتبا للمحاماة بالاشتراك مع محمود ابو النصر ، وانشأ مجلة « الموسوعات » وكنت انا احرر فيها من وقت لآخر ، واذكر اننى كتبت بها عدة مقالات تحت عنوان « مشخصات الأمة » ناديت فيها باصلاح الحروف العربية كى يقرأ القارئون اللغة قراءة صحيحة من غير ان يتعلموا النحو والصرف ...

فلما سمع الشيخ محمد عبده شكوى أحمد فريد باشا لاشتغال ابنه بالمحاماة أخذ يهدىء من نفسه ، ويعرب له انه يخالفه فى رأيه ، ويرى ان الاشتغال بالمحاماة ليس فيه ما يجرح الكرامة وما يخل بالشرف على نحو ما يظن الناس ، وما كان مألوفا فى فهمهم لهذه المهنة فى ذلك الزمان !

الخديو يغضب منى !

كان الخديو عباس لا يميل الى الشيخ محمد عبده ، ويظهر ان بعض الناس ابلغ الخديو انه كان يعايشنى فى جنيف . فلما عاد الى مصر جاءنى مصطفى كامل ، وافضى الى بأن الخديو مغضب منى لاسباب منها اتصالى بالشيخ عبده . ثم قال مصطفى : « .. ومع ذلك لم ننجح فى الحصول على موافقة الباب العالى على تجنسك بالجنسية السويسرية ! »

رجعت من سويسرا ، ولما وصلت الى الاسكندرية رسلت تقريرا ضافيا الى الخديو عباس دونت فيه ابحاثي السياسية بجنيف ، وقلت : « ان مصر لا يمكن ان تستقل الا بجهود أبنائها ، وأن المصلحة الوطنية تقضي ان يراس سمو الخديو حركة شاملة للتعليم العام » .. ثم سافرت من الاسكندرية الى الفيوم عائدا لوظيفتى بالفيوم ، ولم أتصل بالخديو .. وكان صديقي عبد العزيز فهمي قد انتقل منها لوزارة الاوقاف وانا باوربا ، فبقيت في الفيوم مدة انتقلت بعدها وكيلا للنيابة بميت غمر سنة ١٩٠٠ ثم نقلت منها الى الفيوم ثانيا ، ثم الى المنيا .

وكانت سنة ١٩٠٥ ، فاستقلت من النيابة لخلاف في الراى القانوني بيني وبين النائب العمومي كوربت بك .. ولم تكن الاستقالة الاولى من النيابة ، بل استقلت قبل ذلك مرة اخرى لخلاف قانوني ايضا ، ولكنى لم انجح في الاصرار عليها

فلما وقع هذا الخلاف بيني وبين النائب العمومي ، اصررت على الاستقالة على الرغم من انه نزل عن رايه الذى كونه من خطأ وقع فيه وكلاؤه في تكييف الوقائع ، لانى ضقت باحتمال جو خانق بالنيابة اذ كنا مكلفين بالا نتصرف في الجنايات الكبرى الا بعد اخذ راى النائب العمومي . وقد عزمت على ان اعيش في بلدى ،وكنت متأثرا وقتئذ بما كنت قراته من مؤلفات تولستوى . ولكن صديقي عبد العزيز فهمي ـ وكان قد استقال من الاوقاف واشتغل بالمحاماة ـ الح على في الاشتغال معه ، فاجبت رغبته واشتغلت بها فترة قصيرة ثم اعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير في صحيفة « الجريدة »

الفصل الثالث

اشتغالى بالصحافة
ورأيى فى الخديو عباس

اسلفت انى عدت من سويسرا بعد أن ابلغنى مصطفى كامل ان الخديو مغضب منى لاسباب منها اتصالى بالشيخ محمد عبده فى جنيف ، وكان سموه لا يميل اليه . وقد قدمت لسموه تقريرا عن ابحاثى السياسية بعد عودتى الى الاسكندرية . ثم سافرت الى وظيفتى بالنيابة . ومكثت بها بضع سنوات حتى كانت سنة ١٩٠٥ فاستقلت منها لخلاف فى الراى القانونى بينى وبين النائب العمومى « كوربت بك » . وعلى الرغم من نزوله عن رايه ، فقد اصررت على الاستقالة ، لانى ضقت باحتمال جو خانق بالنيابة ، فقد كنا مكلفين فيها بالا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعد أخذ راى النائب العمومى خلافا لما كان العمل جاريا عليه من قبل ، وعزمت بعد ذلك على ان اعيش فى بلدى ، لانى كنت وقتئذ متاثرا بما قراته من مؤلفات تولستوى ، ولكن صديقى عبد العزيز فهمى ــ وكان قد استقال من الاوقاف واشتغل بالمحاماة ــ الح على فى الاشتغال معه ، فأجبته الى رغبته ، واشتغلت بالمحاماة بضعة اشهر (١) ثم أعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير بالجريدة

---

(١) فى مذكرات المرحوم عبد العزيز فهمى (باشا) انه لما اشترك مع صديقه أحمد لطفى السيد فى العمل معا بالمحاماة سنة ١٩٠٦ ، جاءه والده ذات يوم وكان يحبه حبا جما ، واخبره انه شارع فى شراء عزبة ، مساحتها أربعمائة وخمسون فدانا ، وانه يريد كتابتها باسم « لطفى » فعند ذلك غضب لطفى ، وقال لابيه :

ــ كلا .. لا اقبل مطلقا أن تميزنى على اخوى سالم وسعيد ، فان اردت ان يكون العقد لى ولهما ، فذاك .. والا فلا =

اصحاب المصالح الحقيقية

وفى ذلك الحين وجدت مشكلة « العقبة » بين مصر وتركيا . وكان الاتراك يدعون انها لهم ، والانجليز يقولون انها ملك لمصر ، وكانت الجرائد الوطنية تنصر الاتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما كانت الحال فى مسالة

= فاكبر والده ذلك الشعور ، واكبرت ذلك الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة ، ولم يسع والده الا اجابة طلبه

اما سبب انصرافه عن المحاماة الى العمل بالسياسة والصحافة ، فلذلك قصة .. تلك ان المرحوم على شعراوي الذي كان يعرف لطفى السيد ومقامه عندما كان رئيسا لنيابة مدينة المنيا ، جاء ذات يوم الى مكتبنا ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » ، وانبأنا ان بعض الناس زوروا عليه سندا بمبلغ كبير ، وانه حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا بالمبلغ ، ويريد ان يعمل له لطفى السيد التماسا باعادة النظر فى الحكم النهائى ، فدرس لطفى القضية ، ودرستها انا ايضا معه .. فلم نجد وجها قانونيا للالتماس . ولان شعراوى باشا يعلم بأن الحكم ظالم الح هو وعم عزام ليعمل لطفى الالتماس ، فقبل كارها بعد أن افهمهما أن هذا الالتماس لا وجه له . ولما رفضت المحكمة الالتماس ، حدث أننا كنت انا ولطفى ذات يوم داخلين المكتب ، فوجدنا عم عزام قاعدا على الباب ، فحين رآنا انتفض قائما ، وقال : « بقى الفلوس ودفعتها .. والقضية وخسرتها .. واعمل ايه .. ! » وهو يعنى بالفلوس مبلغ العشرين جنيها التى كان قد دفعها لمكتبنا كمقدم اتعاب .. ومن أخلاق لطفى السيد أن المال لاقيمة له عنده ، وانك اذاشئت ان تعكر دمه ، فناقشه فى مسالة مالية .. فلما سمع لطفى عبارة عم عزام اسرع بالدخول الى المكتب ، وفتح الخزانة ، واخرج منها العشرين جنيها ، وكلف المرحوم محمد سليمان كاتب المكتب ان يعطيها للرجل ، وأن يتلطف معه ، فيقول له : ان نقوده هذه كانتامانة عندنا ، وقد نبهناه الى أن الالتماس لن ينجح ، فلما الح حفظنا هذه النقود على ذمته لنردها له

وعند انصرافنا من المكتب قال لى لطفى : « هل هذه هىالمحاماة ؟ .. انا فى غرفة المحامين أسمع من البعض فحش القول وهجره . واجد من بعض القضاة جفاء وغلظة .. وهاهم أولاء اصحاب القضايا بمثلهم عم عزام . فالوسط من أوله الى آخره ، لايعاش فيه . ولذلك صممت على تطليق المحاماة » !!

ومن ذلك الحين كان أكثر اشتغاله بالسياسة ، وتحرير « الجريدة »

« فاشودة » ، فان المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الانجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر . وهذا المعنى لايمكن تفسيره الا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فاصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتي به ، ولو كان فيه الخير لمصر

فكرة انشاء « الجريدة »

وفى هذه الاثناء ، تحدثت فى حالنا السياسية مع صديقى محمد محمود باشا ــ وكان وقتئذ سكرتيرا لمستشار نظارة الداخلية .. وكان حديثى يتناول مسألة « العقبة » وما يجب لمصر فى ظروفها السياسية من انشاء جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون ان يكون لها ميل خاص الى تركيا او الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد .. وقد رأينا ان تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من الاعيان اصحاب المصالح الحقيقية الذين كان يصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال، ساكتون عن حقوق مصر ، وان الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشبان الافندية والباشوات الاتراك !

لهذا الغرض دعوت فى « الكونتننتال » اصدقاءنا : محمد محمود ، وعمر سلطان واحمد حجازى ، ومحمود عبد الغفار ، وتحدثنا فى الامر .. وقد لاحظنا فى حديثنا وأبحاثنا أن الامل الذى كان المصريون يعقدونه على فرنسا فى المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٠٤ . وكانت السياسة الفرنسية قبل هذا الاتفاق ترمى الى مناواة السياسة الانجليزية فى مصر بعد أن فازت انجلترا دونها باحتلال وادى النيل ، وكانت فرنسا تعانى

فى ذلك الحين مصاعب فى مراكش ، وخشيت ان يؤدى فشل ادارتها هناك الى تدخل الدول وبخاصة انجلترا واسبانيا .

ولكن اسبانيا كانت مشغولة بمتاعبها فى المنطقةالاسبانية وكانت انجلترا هى الدولة التى يخشى منها. ولهذا ارادت فرنسا ان تحصل على حيادها . وكان الثمن الطبيعى لذلك ان تحصل انجلترا على حياد فرنسا فى شئون مصر ، فعقدت الدولتان هذا الاتفاق . واهم ما نص عليه :

« ان تعترف الحكومة الانجليزية انها لا ترغب فى تغيير نظام مصر السياسى . وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها انها لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء او باية طريقة اخرى »

وبعبارة اخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى لمصر ، وتركت لانجلترا حرية اكثر مما كان لها فى الشئون المصرية . وكان من نتيجة ذلك أن انهار أمل المصريين فى فرنسا ، وتحققوا انه لا يمكن الاعتماد عليها ، ولا على اية دولة فى المسألة المصرية ، وان على مصر ان تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال

تاليف شركة « الجريدة »

تبادلنا الرأى نحن المجتمعين فى هذا الموقف ، ووضعنا الخطة التى نسير عليها . وعينا المبادىء التى تقوم عليها جريدة حرة مستقلة غيرمتصلة بسراى الخديو ، ولا بالوكالة البريطانية ، واخذنا نسعى فى اقناع أصدقائنا ومعارفنا من اعيان البلاد ، والفنا فى بيت محمود باشا سليمان شركة « الجريدة » ؛ وانتخبت انا مديرا لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات .

وكان رئيس الشركة محمود باشا سليمان ، ووكيلها حسن باشا عبد الرازق الكبير

وبعد تأليف هذه الشركة ، أخذت الجرائد المتصلة بالخديو عباس تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، واننا نمالئهم ضد الخديو . وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ، لانه كان بين شركائنا فى « الجريدة » عدا الاعيان طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة . ومن هؤلاء احمد فتحى زغلول باشا رئيس محكمة مصر ، واحمد عفيفي باشا المستشار بالاستئناف، وعبد الخالق ثروت باشا عضو لجنة المراقبة وصاحب الاثر الكبير فى وزارة العدل .

ومن الطريف ان كانت هناك جريدة يصدرها وقتئذ حافظ عوض باسم « خيال الظل » فنشرت ابياتا ينسبها بعضهم الى احمد شوقى جاء فيها :

« ما فى « الجريدة » من نرجيه سوى
« لطفى » فردوه لنا وكلوها ! »

وقد بقيت هذه التهمة عالقة بالجريدة حتى ظهرت بعد ستة اشهر من تأليف الشركاء فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ . وقد افتتحتها بمقال تضمن اغراضها ومبادئها . جاء فيه :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها ارشاد الامة المصرية الى اسباب الرقى الصحيح ، والحض على الاخذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والامة بتبيين ما هو خير واولى ، تنقد اعمال الافراد واعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والافراد فى اشخاصهم واعمالهم التى لامساس لها بجسم الكل الذى لاينقسم ، وهو الامة ..

« لا يكون من أهل الوطن الواحد امة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين افرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم ، وان أظهر المشابهات فى حالة الامة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الافراد وهذا ما يسمونه بالرأى العام ..

« والناس بطبائعهم أشتات فى الرأى ، كما قيل : «للناس عدد رءوسهم آراء » وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى، ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الامور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى ان لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما ، وان بهذا الوجود العام كما لا يجب أن يرقى اليه بعمل الافراد .. » الخ ..

وكان من عادتى ان اكتب افتتاحيات الجريدة . ما كاد يمضى على صدورها غير ايام ، حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر ، فخطب خطبته المشهورة فى « الاوبرا » ، وعلقت « الجريدة » عليها تعليقا لا يقل عنفا عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقتها وعلى مبادئها تنقد أعمال السلطة الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد اعمال السلطة الشرعية ــ سلطة الخديو عباس

وقد يحسن هنا ان أتحدث بايجاز عن هاتين السلطتين ليقف القارىء على حالة مصر ، ومركز كل من الخديو واللورد كرومر فى ذلك الحين .

الخديو عباس

كان الخديو عباس حلمى الثانى قوى الارادة لا يحتمل ان يرى غيره يتصرف فى حقه ، فعندما ولى الخديوية المصرية اظهر صفات القوه الشخصيه والشجاعة الادبية والعزة اللائقة بالملوك . فأنكر على الانجليز تصرفهم فى حقوقه واستئثارهم بالامر دونه ، وعز عليه ان يصدر كل شيء باسمه على غير ما يختار ، فنفر من معاملتهم اياه معاملة المغفور له والده ، وعارض فى كثير من المسائل بشدة ، فتنبه لذلك الشعور الوطنى ، وقال الناس : « ان هذا الامير سيعيد لنفسه مجد ابيه الاكبر محمد على باشا » .

وقد راى ان وزارة مصطفى فهمى باشا هى من اكبر وزارات « الوفاق » او « الاستسلام » ، فاسقطها ونصب وزارة حسين فخرى باشا فى ١٦ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن انجلترا ارغت لهذا التصرف وازبدت وعارضت فى تنصيب الوزارة الجديدة ، واكرهت « الخديو » على اسقاطها فلم تلبث فى الحكم غير ثلاثة ايام ! ولكن ذلك لم يفل من عزم الامير المطالب بحقه ، فسار فى سياسة الخلاف كلما حانت الفرصة ، حتى انتقد الجيش فى بعض نظمه وكان على راسه « كتشنر » حينما تفقده الخديو فى الحدود المصرية ؛ فغضبت الحكومة الانجليزية ، وطلبت الترضية فوقف سموه موقف المتمسك بحقه من ابداء رايه فى جيشه ، ولكن الوزارة المصرية الجديدة برياسة مصطفى رياض باشا ، قد اضطرت يومئذ الى اجابة مطالب

انجلترا ، فكانت النتيجة ان شكر سموه الجيش ترضية للسردار كتشنر !

وبعد ذلك جاءت سياسة « شبه الوفاق » من سنة ١٨٩٤ ، فأكثر الانجليز من عدد مستشاريهم وموظفيهم في النظارات ، واخذت « عابدين » و « قصر الدوبارة » كلتاهما تحمي من يلجأ اليهما من الموظفين من الجهة الاخرى ، وترتب على حادثة الحدود وما سبقها نتيجة مساوية للنتيجة التي ترتبت على رضا الخديو السابق توفيق باشا بالغاء قرار مجلس انتظار القاضي بالاستغناء عن خدمات « مستر سكوت » . ثم أعقب ذلك امضاء اتفاقية السودان التي جعلت ادارته شركة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية . ولكن المصريين فطنوا ازاء تلك الحوادث ، الى انه يستحيل عليهم ان يتقدموا في سبيل المدنية خطوة الى الامام الا بمشاركة الامة المحكومة في الاعمال العامة ، فأخذ كتابنا وكبراؤنا يشعرون بضرورة طلب الدستور عن طريق التدريج ، فحنق الانجليز ــ رغم اشادتهم بالحرية ــ من هذه المطالب ، ولم يقتصروا على مناوأتهم للامير الذى لا يريد ان يكون الاتفاق معهم سببا في انتقاص سلطته الشخصية ، بل نالوا من الامة ايضا بالتشهير ، فلما ان جاءت حادثة « العقبة » راى الانجليز ان المصريين يتبرمون بهم ، فأرادوا ان يعطوهم درسا اليما باحكام حادثة دنشواي سنة ١٩٠٩ ، ظنا منهم ان تلك السياسة ــ سياسة القسر ــ تصرف المصريين عن آمالهم في الدستور ، وتقطع السنة الخاطبين ، وتكسر اقلام الكاتبين لترشيح الامة للدستور ، ولكن النتيجة جاءت على العكس مما قدروا فان هذه الحادثة جعلت مصر تزيد اقتناعا بأن حياتها موقوفة على نيل الدستور بقدر ما يسمح به مركزها السياسي ، فازدادوا طلبا له وتشبثا به فقلل الانجليز من

حدتهم ، والانوا من جانبهم ، وجنحوا الى استرضاء الخديو عباس بسياسة الوفاق

وفى اثناء تلك الحرب السجال بين السلطة الشرعيــة ، والسلطة الفعلية ؛ او بين الخديو واللوردكرومر واختلافهما على أيهما يكون له الاثر الفعلى فى الامة المصرية قامت « الامة » بين السلطتين تثبت شخصيتها غير المعترف بها من الفريقين ، وتؤدى فى سياسة البـــلاد واجبها حتى لا تكون متاعا لكل غالب ، ملتزمة فى ذلك طريق الحكمة والسلام

الفصل الرابـع

لورد كرومر
أمـام التاريـخ

١ ـ قصة حياتي

اعمال اللورد كرومر

فى اوائل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر . وذلك بعد ان مضى على حادثة دنشواى الشهيرة نحو عام .. تلك الحادثة التى ابرزت سياسته الاستبدادية للعالم بصورة بشعة ، وأوضحت اعماله الاستعمارية لمصلحة قومه وبلاده بحالة لا تتفق مع مكانة دولة متمدنة . ومع ذلك فان هذه الاستقالة عزيت الى سبب آخر هو ضعف صحته . ومهما يكن هذا السبب، فانه لو كان قد بقى لورد كرومر عاما واحدا فى منصبه لعيد عيده الذهبى فى خدمة دولته ، لانه صرف حتى يوم استقالته تسعة واربعين عاما فى خدمة المصلحة البريطانية . ولقد اصدرت من صحيفة « الجريدة » فى ذلك الحين ملحقا ذكرت فيه لمعة من ترجمته ، ثم فصلت اعمال ذلك السياسى بما له وما عليه ، فقلت :

تنقسم اعمال اللورد فى مصر الى قسمين : اعمال مالية واقتصادية واعمال سياسية :

اما اعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها فى مصر سنة ١٨٧٧ اذ عين عضوا انجليزيا فى صندوق الدين المصرى ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع فى المسائل المالية ما انساها القاعدة القائلة ان الذى يربى بين البنادق والمدافع كالشاب « أفلن بارنج » لا يميل به طبعه الى المالية او السياسة .

وفى سنة ١٨٧٩ اتفقت الحكومتان البريطانية والخديوية

على تعيينه مراقبا عاما للمالية المصرية ، لان انجلترا كانت تهتم مع فرنسا اشد اهتمام بالمالية المصرية صونا لاموال الانجليز والفرنسيين ، فاظهر براعة كبيرة . وكان فى جملة الذين مهدوا السبيل لاصدار قانون التصفية (١) الذى ضمن للدائنين الاوربيين اموالهم مع فائدتها . وقبل ان يصدر ذلك القانون حدث ان مالية الهند ارتبكت ارتباكا شديدا فعينته حكومته عضوا ماليا فى المجلس الهندى ، وهناك لم يفعل الا مازاد حكومته ثقة به .

ولما تقرر ان يغادر السير ادوارد مالت معتمد انجلترا فى القطر المصرى ، لم تجد الحكومة البريطانية رجلا اخلق بمنصبه من لورد كرومر (وكان لايزال اسمه السير افلن بارنج) . ولما اجتمع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر فى المالية المصرية كان فيه مندوبا محترم الرأى . وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح فى مصر قبل ان تقوم المالية فيها على أساس متين . ولا تقوم المالية على ذلك الاساس الا اذا زادت مواردها ووثقت بها اوروبا . ولا تزيد مواردها الا اذا تحسنت احوال الرى على الاخص ، فاصبحت ارض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على انباته . واما الموارد الاخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبوستة ، وسائر مصادر الدخل فانها تاتى فى المقام الثانى . ولذلك افرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها على عقد قرض خص جزءا منه بالرى

وما ان جاء سنة ١٨٩٩ حتى صار دخل الحكومة (١١٫٤١٥٫٠٠٠ جنيه) وكان كلما زاد التحسن فى المالية، زاد فى المساعدة على تخفيف الضرائب ، غير ان النفقات

---

(١) فى ابريل سنة ١٨٧٩ الفت لجنة للتصفية ــ اى تصفية الديون المصرية لاوربا ــ وصدر قانون التصفية فى ١٧ يوليو سنة ١٨٧٩

كانت طائلة بسبب فوائد الديوان ونفقات المشروعات

وكان لدى لورد كرومر مشروعان يؤلمانه ويشكو منهما . أولهما : صندوق الدين . والثاني : وهو متعلق بتخصيص ما قيده قانون التصفية بالديون كالدائرة السنية والدومين ونحو نصف دخل السكك الحديدية ، فلم يجد وسيلة للخلاص من هذين المشروعين سوى الاتفاق مع فرنسا اولا. وحدث ان الملك ادوارد مال الى هذا الاتفاق ، وحببه الى حكومته ، فاغتنم كرومر الفرصة ، وايده بما استطاع .. كما ذكر اخيرا فى حديثه مع مراسلى الطان

اما السبب الذى حمل لورد كرومر على الشكوى من صندوق الدين مرارا فى تقاريره ، فهو أن الصندوق لم يكن يقدم كل ما تطلبه الحكومة المصرية من الاموال اللازمة للاصلاح . وقيل ان لورد كرومر لما اذن بتاسيس البنك الاهلى ، وايده تأييدا معروفا كان يؤمل أن يقوم يوما مقام صندوق الدين .. وها نحن أولاء نرى هذا الامل يوشك ان يتحقق ..

**

ولما تم الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ (١) بين فرنسا وانجلترا كان اول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين ، فرضيت فرنسا بالشروط التى عرضها عليها . ثم وافقت الدول الاخرى التى لها أعضاء فى ذاك الصندوق .

ولقد بات لورد كرومر فى راحة عظيمة من الوجهة المالية بفضل ذلك الاتفاق ، فلم يعد يرى فرنسا تعاكسه

---

(١) اتفاق عقدبين فرنسا وانجلترا بان تطلق كل منهما يد صاحبتها ،تلك فى شمال افريقية ، وهذه فى مصر

كما عاكست فى مسألة تحويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين اخذت نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، اضطر الى رده بحكم من المحكمة المختلطة . ولا يشك احد فى ان لورد كرومر فاز فوزا ماليا عظيما بادخال ما اراده من المواد المتعلقة بالمالية المصرية فى ذلك الاتفاق . كما فاز مع حكومته فوزا سياسيا بحمل فرنسا على التعهد لهم فيه : « بانها لا تقيم أقل عقبة فى سبيل انجلترا بمصر سواء كان بطلب تعيين موعد للجلاء او غيره »

وكان من سياسته المالية ايضا ، ان يرفع اثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين .. فانشأ البنك الزراعى بعد انشاء البنك الاهلى ونصح للحكومة المصرية وللبنك الاهلى بأن يساعداه حتى يقدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سبيل المعاش ، فأنشىء هذا البنك ، وجعل من مواد قانونه ان يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنيه بفائدة ٩ فى المائة . غير ان بعضهم ينتقد البنك المذكور فى بعض امور ليس هنا محل ايرادها

وليس فى وسع احد ان ينكر النتيجة التى وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية . واذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل معينة فى بعض المصروفات ، فان كل عاقل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من خيرة الاقتصاديين واكابر الماليين . فكم زادت مساحة الارض المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ الى اليوم ، وكم زادت قيمة الأرض الزراعية وأرض البناء بفضل سياسته . فليس بعجيب ان تعظم ثقة الاوربيين باللورد حتى صاروا يعدون كلمته حجة. أما خلاصة آرائه فى الحالة الحاضرة ، فهى ان هذا النجاح الاقتصادى قائم على قواعد راسخة ، غير انه يجدر بالمصريين وغيرهم الا يتهوروا فى

الاقبال على احدى الشركات قبل أن يدققوا ويفحصوا ، ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الأركان ..

أعماله السياسية

لا ينكر أحد على لورد كرومر أنه سياسى محنك بعيد النظر رحب الصدر ، طويل الاناة كما يجب على كل سياسى .. غير ان سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التى صرف فيها شبابه . تريد أنه شديد المراس فى مطلبه،عظيم الاصرار على أمره . يبقى سنوات عديدة يسعى الى غاية واحدة ، ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهانا لتأييد رأيه. ولا يدلنا على هذا كله مثل الحوادث التى جرت منذ ١٨٨٤ الى اليوم ، ولو اتخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلا ، لكانت برهانا كافيا على خطته . فانظر كيف أنه كان يجاهد جهادا متواصلا حتى يستنبط فى كل زمن وسيلة جديدة لارساخ قدم دولته فى وادى النيل ، فسير حملة السودان ، وكان فى كل ساعة يستنجد الدماء الانجليزية التى اريقت فى أم درمان على كل انجليزى ان يلفظ كلمة الجلاء .. حتى استمال الى رأيه كبار الاحرار والمحافظين ، فأيده لورد روزبرى ، كما أيده لورد سالبرى، واستمال اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوارد جراى ، وبات الاسطول البريطانى حارسا لما قرره فى المسألة المصرية . فما رأينا حكومته ترد له طلبا ، أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى درجات الشره . واننا نورد للقارىء هنا مثلا واحدا لتلك الثقة العظمى بسياسته :

لما وقع الخلاف بينه وبين الخديو عباس على تعيين حسين فخرى باشا خلفا لمصطفى فهمى باشا سنة ١٨٩٣، ذهب لورد كرومر الى عابدين ، واعترض اعتراضا شديدا

على تعيين فخرى باشا ، واظهر للخديو ان اصراره على رأيه يجعل الامر خطرا ، وابرز له تلغرافا من اللورد روزبرى ناظر الخارجية يؤيد قوله (١)

فان معتمدا سياسيا يجد من حكومته مثل هذه المساعدة فى هذا الحادث ، يستشعر من نفسه حزما وان يكن بلا حزم ... فكيف برجل عسكرى كاللورد كرومر. واذا أراد المطالع برهانا آخر على تقديس الحكومة الانجليزية لكل رأى من آراء لورد كرومر فى المسائل المصرية ، فليذكر حادثة فاشودة (٢) التى كادت تضرم نار الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وما تلك الحادثة وطرد كولونيل مرشان ورجاله من الجزء الذى احتله من السودان الا تأييدا لسياسة كرومر ، وما الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا بعد تلك الحادثة على مناطق السودان الا بناء على رأى لورد كرومر أيضا ، تمهيدا لاتفاق أكبر وخطوة أوسع فى سبيل التقرب بعد ذلك التباعد بين الدولتين

ولما عقد ذاك الاتفاق ، اى اتفاق سنة ١٩٠٤ ، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية فى هذا القطر ، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية ، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية ، فكتب قبل استقالته بعام فصلا طويلا عن وجوب تغيير الطريقة القديمة فى الامتيازات

---

(١) اسقط الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، وعين فخرى باشا رئيسا للوزارة ، واراد بذلك ان يحقق سلطته الشرعية . فعل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة ، قبل أن يعرف رأى حكومته ، وانتهى الامر بأن عدل الخديو عن تعيين فخرى باشا ، وعين رياض باشا رئيس وزارة

(٢) وقعت حادثة فاشودة فى اكتوبر سنة ١٨٩٨ ، اذ احتل الكولونيل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسية جزءا قال الانجليز انه تابع للسودان، وان لمصر حقوق السيادة عليه . وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنسا مبلغا كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين

الاجنبية ، ثم نشر فصلا ضافيا فى هذا الموضوع ، اطلع عليه الناس وقتئذ ... فكانت حمـــلاته على طريقـة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل ان ينال مراده

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب فى هذا الباب، فان كل خطبة لرجال الحكومة الانجليزية ، وكل تقـرير من تقارير لورد كرومر ، وكل أثر من آثاره السياسية ، يظهر حقيقة تلك السياسة التى اتبعها الشيخ الراحل . ولقد كان تقريره الاخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادى .. وفى تلك الوصية لا ينصح دولته ببسـط الحماية على مصر الان لان بسطها يقضى بتغير فى الحالة السياسية مع ان انجلترا تعهدت فى الاتفـاق الانجليزى الفرنسى ، بأنها لا تغير شيئا من تلك الحالة ، كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انجلترا فى القطر المصرى

نتيجة تلك السياسة

فما هى نتيجة تلك السياسة كلها ؟

نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انجليزى فلا يسع النـاظر سوى الثنـاء عليه . أما اذا نظرنا اليه بالعين التى يجب على المصرى ان ينظر بها الى مصلحة وطنه ، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئا من الثناء على عمله السياسى فى مصر ، فانه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليهـا كل امة حية . واذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية ،فلا يمكننا ان ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفى الحكومة من المصريين فنزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم ، والقاها فى ايدى الموظفين الانجليز ، فبات كثير من أذكياء الشبان المصريين ينفرون من وظائف الحكومة . ولا أدل على هذا كله من شـــدة

احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين . ولا نظن ان قلة الكفاءة التى يذكرها اللورد فى تقريره الا نتيجـــة التعليم الناقص ، وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين فى الحكومة ، وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقة لمصلحة بريطانيا العظمى ، لان اللورد كان ينظر فى كل أمر الى مصلحة دولته قبل كل شيء : سنة الوطنى الغيورعلى وطنـــه

وانه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الاسلامية وعن وجود التعصب لها فى القطر المصرى، مع أن التعصب ليس له فيه أثر على الاطلاق ، ولكن المصلحة البريطانية ، تريد أن تمثله هائلا مخيفا . ومن هذا الطراز أيضا كل عمل وكل اتفاق ، وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسى الانجليزى العظيم

وربما كان فى وسع اللورد ان يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التى حصل عليها .. لو انه صرف همته ايضا فى كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم، ولو أنه وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجـــا مفيدا للامة ، ودفع عن المعارف العمومية من كان يناهضها ، واعتمد فى الاصلاح على اكفاء المصريين ، ورشحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ، ورغب عن محو الجنسيةالمصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر

لا شـــك انه بذلك كان يكسب لدولته صـــداقة الامة المصرية ، ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نمو الحرية الشخصيةواحترام الحق والمساواة بين طبقات الامة

خصائص السياسة الانجليزية

للسياسة الانجليزية عدة خصائص أو بالاولى عدة قوى متماسكة متضامنة يتألف من مجموعها تلك السياســة

التى تحكم على خمس العالم . واحدى تلك المميزات انها لا تنقل سفيرا فى دولة ولا حاكما فى مستعمرة ولا معتمدا فى بلد ، الا اذا قضت الدواعى القاهرة كما حدث للورد كرومر معتمدها فى القاهرة .. فان هذا السياسى الكبير يقيم فى العاصمة المصرية منذ بضعة وعشرين عاما . ولولا طول اقامته لما تمكن من اظهار مقدرته لان النقل يقطع على السياسى سلسلة افكاره التى يتمكن بها من الصعود الى أعلى مراتب العلاء

فلورد كرومر كان كبيرا بثلاث : مقدرته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قواها ، وسعة الوقت الذى انفسح له فى مصر . وكان من يرسل نظرة شاملة الى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمدا لدولته فى هذا الوادى ، يجد أن تلك المزية فى السياسة الانجليزية ساعدته أعظم مساعدة لانها مكنته من اتمام سلسلة أعماله حلقة فحلقة ، والرجل كان يشهد له الخصوم قبل الأحباب بأنه بعيد مرمى النظر ، طويل حبل الصبر ، فكان كل عمل يأتيه تمهيدا لما يأتى بعده ، وتوطئة للغرض الذى وضعه نصب عينيه ، فما وافق على ترك السودان فى أوائل عهد الاحتلال الا ليبقى استئناف الحملة على السودان وسيلة جديدة بين يدى الاحتلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانجليزية عند الفرصة الموافقة ، وقد عرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير القائد الفرنسى مارشان نحو السودان المصرى . وما عقد بعد فاشودة من الاتفاق السودانى مع فرنسا الا ليزيل ما بقى من آثار الاستياء فى نفوس الفرنسيين بعد تلك الحادثة ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتلال فى المالية داخل القطر ، واطلاق يد حكومته من الوجهة السياسية ، فكان له ما اراد باتفاق سنة ١٩٠٤ مع فرنسا ، ثم بموافقة سائر

الدول صاحبات الشأن فى صندوق الدين على ما يتعلق بمصر ، فتزعزع من تلك الساعة أساس هذا الصندوق.

وما مد اللورد يمين المساعدة فى ذاك الاتفـاق اكتفاء بمزاياه فقط ، بل قال فى نفسه نحن نغنم ما يقدمه من المزايا السياسية والمادية ، ثم نجعله تمهيدا جديدا لمشروع آخر عظيم هو تغير تلك الامتيـــازات فى مصر ، وحصر السلطة التشريعية فى قبضة بريطانية ، وما نيل هذا المراد بالأمر المستحيل ما دام الاتفاق الودى موجودا بين لندن وباريس

الفصل الخامس

ردى
على اللورد كرومر

* المصريون فى رأى كرومر
* فكرة الجامعة الاسلامية
* ليس عندنا تعصب دينى

المصريون فى رأى اللورد كرومر

على اثر استقالة اللورد كرومر ، نشر تقريرا عن آرائه وأفكاره وماقام به من أعمال فى القطر المصرى ، وقد تناول هذا التقرير طبيعة المصريين واخلاقهم وأفكارهم ، كما تناول ميولهم نحو الجامعة الاسلامية التى كانت تجول فى خواطر بعض المصريين فى ذلك الحين . وقد قمت فى مايو سنة ١٩٠٧ بالرد على ماحواه هذا التقرير من اخطاء وادعاءات . وانى الخص هذا الرد فى الصفحات التالية :

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقي على العموم من جهة الاخلاق الثابتة وآثار التطور المدنى فى تلك الاخلاق ، ولا من جهة كفاءته السياسية لتدبير شئونه وحكم نفسه ، ولا من جهة تاريخ الشرق فى التمدن ، ولا من جهة ان اليابان من بلاد الشرق كما استثناها اللورد كرومر فى تقريره معتذرا بعدم معرفتها .. ولكننا نتعرض الى تفسير تلك الجملة المبهمة الكثيرة المعانى القليلة الالفاظ التى صدر بها هذا الموضوع فى تقرير اللورد ..

قال الاستاذ سايس : « ان الذين أقاموا فى الشرق وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم أنه يستحيل مطلقا على الاوربى أن يتحد فى النظر مع الشرقى . ومن المحقق ان الاوربى بادىء الامر يظن انه هو والشرقى يتفاهمان ولكنه يأتى وقت — عاجلا أو آجلا — يرى الاوربى نفسه يحس فجأة أن ذلك كان حلم نائم ، ويجده أمام انسان ذى ملكات عقلية غريبة بالمرة حتى ليظنه من سكان زحل »

وبهذا الراى يدين اللورد كرومر ، ويحكم به على الشرقيين

الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين

صدق الاستاذ سايس اذا كان قوله منصرفا الى أن الاخوين الشرقى والغربى مختلفان فى النظر جدا فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الادبية . أو بعبارة أخرى أن الشرقى بذكائه وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوه القليل الاضطرابات ، وطبيعة أوطانه ، وما ألفه من التقاليد الدينية العريقة فى نفسه ومواعظ أسلافه الغالب فيها تفضيل الزهادة . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الادبية كالاحسان والكرم والوفاء والاخلاص الدينى المقام الاول فى حياته الدنيا ، ويفضلها على المنافع المادية .. فعيب الشرقى قد يكون فى سهولة أخلاقه وسلاسة انقياده ، كما وصف به أرسطو سكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضى صحة الانتاج ، ولكنه عاب عليهم ما ينتجه تأصل طبائع الاستبداد فى حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد أنه أراد بقوله الاشارة الى تلك الفضائل .. خصوصا أنه ليس فى مقام مدح الشرقى ، ولكن الذى يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى أنه يريد بيان مسألتين :

أولاهما : ان أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية ، وأقام على ذلك دليلا هو أن أفكارهم بعيدة عن تطبيق هذه القاعدة : « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » .. لان بعضهم يظهر له الرغبة فى الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتلال . وأن أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انجليزى لتقسيم الماء . وبعضهم طلب قاضيا انجليزيا للفصل فى قضية .. ولا نتعرض هنا لذكر الاشياء التى حملت هؤلاء الاشخاص على مثل هذه الطلبات على فرض أن طلباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعا . بل نرجىء

هذا البحث الى الفصل الخاص بالموظفين .. وغاية ما نورده هنا هو مناقشة القاعدة « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة »

وجد الاحتلال الانجليزى فى مصر بعلة اطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصالح الاوربية ، ثم تدرجت العلة الى اصلاح شئون الامة المصريه واعدادها لتحكم نفسها بنفسها ، وليأمن الانجليز على حقوقهم التى كسبوها فى مصر. ثم ينصرف عنها الاحتلال

متى كان هذا هو غرض الاحتلال ، وكانت اعمال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصرى الذى يرضى بالنتائج (اى بالاصلاح الذى لاجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة

أما وقد راى المصرى راى العين أن الاحتلال لم يثبت له بالحس أن علة وجوده فى مصر هو تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال فى مصر بونا بعيدا فأشكل عليه الأمر الى حد ان المصرى المنصف الكثير التدبر والتروى ، الذى لا يشوب حكمه على الامور فى مصر غرض من الاهواء ، يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله .. يقع فى روعه أن للاحتلال مقصدا خفيا غير ما يقول الساسة الانجليز . ولا شك فى ان مثل هذا معذور اذا رضى بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذى اشكل المقصود منه على العقول

**

بشر المصرى آماله حين راى احترام الحكومة للحرية الشخصية التى نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها ، والقيام بالاعمام النافعة ، ولكنه لم يلبث أن راى الاحتلال

بعد ذلك بقليل قد ظهر فى كثير من المواطن بمظهر المعاند ، فأخذ أولا يقتسم هو والخديوية المصرية آراء النـــاس وميولهم ، فأخذ الناس أيضا بمقتضى هذه المعـانده بين السلطتين أن يلتجىء كل الى ما يرى فى الالتجـاء اليه مصلحته الذاتية ، لان المصلحة العامة هى فى ألا يلتجىء الناس الى احد الطرفين دون الآخر ، لأن انتشـــار ذلك يضيع شخصية الامة ، ويجعلها كما كانت لا حق لها الا الطاعة للامير (ان سميت الطاعة حقا) ـ ولا ينكر أحـد ان تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتخلل كثيرا من أعمال كلتيهما ـ كلما ظفر الاحتلال بالسلطة قرب كثيرا من الذين لا يهمهم الا مصالحهم أو رواتبهم ، ثم التفت الى التعليم العام فى المدارس الاميرية فوصل بها الى هذا الحد الذى نراه اليوم ، والذى جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الاكفاء بل ندرتهم . ثم مال الى النفوذ الشخصى للحكام الوطنيين فجردهم منه ، وانحصر عملهم فى الطاعة لغيرهم من الانجليز سواء أكانوا رؤساء أم مرءوسـين . ثم لم يستبدله بمشاركة الامة له فى الحكم .. فاعتقد المصريون أو أغلبهم ان الاحتلال هو لمصلحة انجلترا وأوربا بالذات، حتى لقد غلا بعضهم فى تقدير فهمه العدل الذى جرى على يد الاحتلال ، فقال ان انجلترا مهما كانت نياتها لمصر، لا يمكنها الا أن تعدل ما دامت ترى أن لا مصلحة لهـا فى الظلم

فهل يكون المصرى غير منتج اذا بنى فكره على الاعمال المشاهدة من خير وشر ، واستنتج من هذه الاعمال نتيجتها اللازمة ، وهى أن الاحتلال قد جاء ببعض الفوائد ، ولكن تمشيه على طريقة حرمان الامة من الحياة السياسية خطر على الامة يوجد الضجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال ، كما قدمنا . فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة

على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهى المطلب) من الصعوبة بحيث لايمكن تطبيقها من غير تعسف الا اذا أبان الاحتلال لمصر أنه يسعى فى منح مصر حياة سياسية بالتدريج . والمؤمل أنه يعمل على ذلك . ولا ينكر منصف أن الحكومة اهتمت فى هذه السنين الاخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقات الفلاحين ، ونجحت فى تذليل كثير من الصعوبات التى كانت تقف فى طريق تعليم البنات .. ولو أضافت الى ذلك منح الامة شيئا من الاشتراك معها فى العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وأنه لا يقيم الا ريثما تصلح مصر لحكم نفسها بنفسها ، ولأمكن بعد ذلك القول بحق أن من يبغ المطلب يبغ الوسيلة »

ولكن هناك أمرا آخر لا يصح اغفاله ، لأنه قد زاد من الاحتلال ابهاما على ابهام وهو ما ذكره اللورد كرومر فى خطبته الاخيرة فى حفلة الوداع .. تلك الخطبة التى هى منصبة فى أغلب معانيها على الغرض السياسى الخطر الذى يحاول اقناع العالم به ، وهو جعل مصر مستعمرة أوربية مختلطة يكون للاوربيين فيها الغنم ، وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الاوربيين أن صرح فى خطابه بأن الاحتلال باق فى مصر الى ما شاء الله ، فكان فى هذا التصريح التباس جديد على الناس .. ولكن مع ذلك نرى أن هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيرا جوهريا فى السياسة المصرية لان وقت التفكير فيه لم يحن بعد ..

ومن هذا يرى القارىء أن عدم صحة الفكر المصرى فى الانتاج لم تأت من طبيعة له ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من امكان الحكم على مقاصد انجلترا من الاحتلال

الجامعة الاسلامية

المسألة الثانية هى : الجامعة الاسلامية

ان فكرة الوحدة الاسلامية قد تجول احيانا بخواطر بعض الناس الذين لايزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الامور العامة بشىء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث . فكلما راى المصريون اتفاق رجال السياسة الاوربية على شىء يضر بمصلحة مصر ، أويبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال الى الابد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التى استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر انها أمة اسلامية ، وأن أوربا لا تساعد فى الشرق الا الامم المسيحية ، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة كما فى أوربا هذه الوحدة التى يتخيلون وجودها ، وانها كانت الحامل لأوربا على التداخل فى امر ولايات البلقان وأرمينية . نقول ذلك ونحن لا نعرف انه يوجد فى اللغة كلمة جامعة مسيحية « بانيكريستيانزم » كما خلقت كلمة جامعة اسلامية « بانيسلامزم »

على أن عقلاء المصريين لايرون لكلتيهما وجودا فى العالم، ولكن السياسة تخلق ما تشاء .. فليس لأوربا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدى الى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين

من الأوربيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الاوربية فى الشرق

أما كون الجامعة الاسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التى يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لادليل عليه مطلقا .. كما انه لو حوول ايجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه

علمنا التاريخ ، وطبائع البشر أنه لاشىء يجمع بين الناس الا المنافع ، فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة فى الجنسية ، أو وحدة فى الدين . وان أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم فى خلافة أمير المؤمنين على بن ابى طالب مما هو مشهور ومأثور . ان أحسن ما قرأنا فى الجامعة الاسلامية ، هو ماذكره الاستاذ براون فى خطبته التى ألقاها فى جامعة كيمبردج سنة ١٩٠٣ وأبان فيها أن الجامعة الاسلامية هى خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس فى فينا . قال الاستاذ براون :

«انه ليس من السهل تعريف معنى البانيسلايزم بعبارة تنطبق على المثل العربى المشهور « خير الكلام ماقل ودل » ومع الاسف أننى استشرت أحد أصدقائى المسلمين فى هذا الموضوع ، فعرفنى معنى « بانيسلامزم » بلا تردد فى بضع كلمات ، وهى « أن البانسلامزم هى خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس فى فينا »

وان تجسيم الامر فى نفس عميد الاحتلال فى مصر الى حد أنه قد جعله تعصبا للدين لا محل له بالمرة ، الا اذا كان الغرض منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الاوربيين حتى لقد جره ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامى ، وادعى أنها غير صالحة الى الآن تطبق فى هذا الزمان

قال ذلك بتصريحات كان من عادته أن يتوقاها مراعاة لاحترام الدين الاسلامي وتفاديا من جرح شعور المسلمين . نقول على غير عادته لانه كثير الاحترام للدين الاسلامي ، كثير الحيطة في التعبير عنه بشيء يتعلق به ، وكل تصريحاته مستفيضة في هذا المعنى ، فقد قال في خطبته في كلية غوردون في ٤ يناير سنة ١٨٩٩ :

« ولا يخفى عليكم ان جلالة الملكة ورعاياها المسيحيين من أشد الناس استمساكا بعروة دينهم ، ولذلك فهم يعرفون وجوب احترام دين غيرهم . على أن حكم جلالتها يظلل من المسلمين عددا أكثر مما يظلل حكم أي ملك في الارض ، وهم مع ذلك في عيشة هنية ، وسعادة تحت حكمها الكثير الخيرات ، دينهم موقر ، وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام .. الخ »

وقد يؤثر عنه انه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم الا اذا تمسكوا بدينهم الصحيح . وقد ذكر في تقرير سنة ١٩٠٥ ، وفي تقرير سنة ١٩٠٦ ، ما يفيد امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتخليصه من الدخائل التي متى خلص منها كان موافقا لحاجات الناس في التمدن الحديث . وخص منهم بالذكر فقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد أحمد منشيء كلية عليكرة . ولهذا المناسبة نورد للقاريء نص الخطاب الذي ألقاه اللورد كرزون في كلية عليكرة في شهر مايو سنة ١٩٠١ مشيرا فيه الى فوائد الدين الاسلامي ، والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية :

« نعم يمكن للمسلمين أن يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون ، وهو ماعرفوه مرة قبل هذا الوقت في أيام كان فيها للمسلمين السطوة والسلطان ، وكان

قضاتهم يحكمون بالعدل بين الناس ، وفلاسفتهم وائمتهم يؤلفون الكتب النفيسة »

وان عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامى بأى صورة ، ومخالفة لبعض ساسة الانجليز مثل اللورد كرزون فى الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمح من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر ، كل ذلك جعل الناس يكادون يجمعون على أن اللورد أراد أن يصور المصريين للانجليز خصوما ، ولأوربا عموما بصورة أمة غير قابلة للرقى لتسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التى يحاول محوها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية ، وعزا لها ما عزا .

التعصب الدينى

بعد أن رأى القارىء أن الجامعة الاسلامية لا اثر لها فى مصر ولا نظن لها وجودا فى غير مصر ، وانها على هـذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيدالجفاء بين الشرق والغرب ، ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الاوربية يتخذونها سترا يستر أعمالهم فى الشرق .. قد يكون من المفيد جدا فى هذا المقام أن نتعرض الى مناقشة تلك التهمة الثانية التى يربطها بالجامعة الاسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول ، وهى تهمة التعصب الدينى

والدين الاسلامى يأمر بالتعاون والتعـاضد والائتلاف بين أفراد الامة ، كما يأمر والعدل والاحسان ، ويوصى خيرا بالمتحالفين له من أهل الاديان الاخرى على الصـور المستفيضة فى الفقه . وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائن الذى يعبر عنه الافرنج « بالفاناتيزم »

أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحـدة الاعتقاد حب ومعاونة ، تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التى تصورها لهم أفهامهم فى الدين . وأن هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التى تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة . ونظن أن الاوربيين لم يقصـدوا يوما « بالفاناتيزم » هذه الجاذبية بوجه ما ، ولكنهم يقصـدون بالتعصب الدينى معنى عدائيا هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم ، والتربص بهم فلا يبقون عليهم .. وهـذا المعنى لا أصل له فى الدين ، كما لا أصـل له فى نفوس

المسلمين الذين كل جنايتهم أمام أوربا أنهم أخذوا يفكرون فى أن ترقى عقولهم بالتعليم ونفوسهم بالحرية ، وأن يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقى العقلى ليسابقوا غيرهم فى الحيـــاة المدنية . وأنهم يتعلمون الآن من الاوربيين ، فكيف يمكن أن يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ايبعدوهم عن كل مدنية ، وليســـهلوا لانفســـم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم . أظن أن وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع ، وأن المسلمين هم أولى بأن يتهموا الأوربيين بالتعصـــب ، ولكنهـــم لا يريدون ، ولا يستطيعون

التعصب الدينى شـــعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده الا بآثاره . ومن المشاهد أن الاقبـــاط فى مصر يعيشون مع المســـلمين مختلطين فى المصـــالح والمساكن متكاتفين فى المزارع والاعمال ، متجاورين على مقـــاعد المدارس متشاركين فى الوظائف والمرافق ، ولم يسمع من زمان بعيد أن المســـلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجـــهم على أخوانهم أو أظهروا يوما بما يقتضيه وجود التعصب الدينى فى النفوس من الحقـــد الذى يقدح زنده الاشتراك فى المصـــالح . ومن المشـــاهد أيضا أن الرومى يجىء به طلب الرزق الى مصر منفردا .. يدخل احدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف الى كبار أهلها فيفسحون له فى مساكنها ملجأ يأوى اليه ، فلا يزال بتجارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن آجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ، ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمان الاهو دائن لاغلب أهل البلد ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمال بسطاء . وكل هذا لم يحرك فى نفوسهم ذلك

التعصب الديني الموهوم . اليس ذلك الا لأن هذا التعصب عديم الاثر فى نفوس مسلمى مصر ؟

اقام اللورد كرومر على هذه التهمة الشنعاء التي اتهم بها المصريين دليلين ، أحدهما مسطور فى تقريره عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة الهماميل فى الاسكندرية ، وكان فيها أن مصريا ويونانيا تشاجرا على مشترى قطعة من الجبن ، فطعن اليوناني المصرى طعنة بسكين فقضى عليه. وأعقب ذلك ان يونانيا أراد قتل يونانى آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنيا ، فمات . فاجتمع رعاع الفريقين . وقال بعض فريق المسلمين « اقتلوا النصارى »

والثاني حادثة العقبة التي جعلت بعض الجرائد أو بعض الناس يظهرون ميلهم الى تركيا بمناسبة الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية فى تلك الناحية .

أما الحادثة الاولى فلا تثبت من التعصب شيئا لان من الامور الطبيعية أن الناس ينتصرون للمظلوم خصوصا اذا كان من بنى جنسهم . وقد روت روتر فى ذلك الحين أن روسيا فى باريس أطلق الرصاص على جنديين فرنسيين ، فهم الاهالى بقتله لولا أن رجال البوليس أنقذوه من أيديهم ، ولم يقل أحد بأن انتصار الاهالى فى باريس للجنديين كان سببه التعصب الدينى ، فانتصار الوطنيين للقتيل ، وانتصار الاروام وغيرهم للقاتل هو من الامور الطبيعية التى لا تثبت وجود التعصب الدينى عند المصريين . لم يبق بعدئذ

الا قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصائحين بهذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء . ولكن لفظة النصارى فى لغة الرعاع مرادف للافرنج أو نحو ذلك ، فان كان فى

نفوسهم عصبية لكانت عصبية جنسية لا عصبية دينية

أما حادثة العقبة .. فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى سبب الحركة الفكرية التى جرت فى مصر ابان حادث العقبة ، كان من جرائها أن اساء الانجليز الظن بالمصريين وافتكروا أن هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركى بالاحتلال الانجليزى . وأن مثار هذا التبرم هو التعصب الدينى من المصريين للترك . وقد جر هذا الفهم الى نتائج مشئومة .. ولكنا نظن أن الانجليز متى عرفوا السبب الحقيقى لهذه الحركة وانصفوا ، يقلعون عن تهمةالمصريينبالتعصب ، تلكالتهمة التى تسوؤنا أكثر مما ساءتهم

نلتمس علل الاشياء بقياسها على أشباهها ونظائرها . فاذا أردنا أن نلتمس علة هذه الحركة الفكرية الحقيقية التى وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا أن نرجع بها الى نظائرها من الحوادث . ولا نجد حادثة أشبه بها من جميع الوجوهأكثر من حادثة فاشودة . فانالانجليز كانوايدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية لمصلحتها ومصلحة الحكومة الانجليزية ، كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فاشودة باسم الحكومتين المصرية والانجليزية ولمصلحتهما أيضا . وكان النزاع بين الانجليز وبين الترك على الحدود الشرقية كما كان بينهم وبين الفرنسيين على الحدود الجنوبية المصرية . فماذا كان ميل المصريين وقتئذ بالنسبة لحادثة فاشودة ؟

كان فى مصر حركة أفكار تتجه فى مجموعها الى اجتذاب الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور ، وما مصدره ؟

هل كان مصدره فى النفوس أيضا تعصبا دينيا لفرنسا ،

أوجب استبدال الاحتلال الفرنسى بالاحتلال الانجليزى ؟

لاهذا ولاذاك .. ولكن من الطبائع العمرانية أن الامة متى أبعدت عن ادارة حكومتها وجهلت مقاصد حكامها ، أو ظهر لها منهم عين لاستئثار بالمنفعة دونها ، وحملها على ماتهوى وما لاتهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعو بها الى أن تتبرم بحكومتها اذا كانت حكومة وطنية ، فاذا كانت أجنبية فيكون التبرم والمقاطعة من باب أولى

ومثال ذلك الحـــــركة الفكرية للامة فى أوائل الثورة العسكرية سنة ١٨٨٢ فان الامة كانت قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال الفعلى الشركسى وان كان قلقها هذا لم يتعد حد القلق ، لانه لم تكن لها فى الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا مشاركة حقيقية • فهل كان هذا القلق والضــــجر من حال الحكومة ، ومن قانون العسكرية ، مترتبا على تعصب دينى من المسلمين ضد المسلمين ؟ لا شىء من ذلك أيضـــا فلو استقرأنا كل العلل الممكنة التى ولدت حركة الافكار فى سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فاشـــودة ، وسنة ١٩٠٦ بمناسبة حادثة العقبة استقراء صحيحا خاليا عن الغرض ، لوجدنا أن العلة فى كل ذلك واحدة ، وهى قلق من عدم اشراك الحكومة اياها فى شىء من الحكم

ولكن ذوى الاغراض — عن جهل أو سوء قصد — جاءوا يصورون تلك الحركة الفكرية لعميد الاحتلال فى صـــــورة التعصب الدينى ، وهو قد صورها فى الصيف الماضى لاوربا بصورة مزعجة — كل ذلك ، والامة هادئة بعيدة عن التعصب وآثاره

الفصل السادس

طالبنا بالاستقلال التام
فقالوا خرجتم على الباب العالى

الاستقلال والدستور

بعد ظهور صحيفة الجريدة ببضعة أشهر تألف « حزب الامة » فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ . وقد تضمن منهاجه عدة مبادىء فى رأسها المطالبة بالاستقلال التام (١) والمطالبة بالدستور ــ واقل درجاته توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ، ومجالس المديريات ، تدرجا الى ايجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطات الشعب . وقد اختير محمود سليمان باشا رئيسا لهذا الحزب ، وحسن عبد الرازق باشا الكبير ، وعلى شعرواى باشا وكيلين له ، واخترت أنا سكرتيرا عاما

وقد اتخذت بعض الصحف من مطالبة هذا الحزب بالاستقلال التام ذريعة للتشنيع عليه ، واتهامه بالخروج على الباب العالى صاحب السيادة على مصر فى ذلك الحين ، ولكننا لم نأبه لهذه التهمة ، ومضينا فى طريقنا .. وكان لنا كثرة أو شبهها فى مجلس شورى القوانين ، فأخذت فى

---

(١) حينما أعلن الحزب هذه المبادىء كان من المعترضين على مبدأ الاستقلال التام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، واتهم الحزب بالخروج على الدولة العثمانية صاحبة السيادة الرسمية على مصر فى ذلك الحين ، فرد عليه بأن الحزب يقول الاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل ، وهناك فرق بين الكمال والتمام يظهر فى قول القرآن الكريم : « اليوم أكلمت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى » فسكت الشيخ على يوسف بهذه الحجة . وانى لا زلت آسفا حتى اليوم لذلك الرد ، فان الاستقلال الكامل أشمل من الاستقلال التام ، لان المعنى فى « اتممت عليكم نعمتى » أى اسبغت عليكم نعمتى ، ولا يلزم أن يكون أكملت

مهاجمة الحكومة الاستبدادية والمطالبة بالدستور ، وقدم محمود سليمان باشا وحسن عبدالرازق باشا الى رئيس الحكومة مشروعا بتوسيع اختصاص مجالس المديريات . فقدمت الحكومة مشروعا آخر أقل سعة من مشروعنا ، وقد سرنا انها سارت فى هذه الطريق للوصول الى تحقيق ارادة الامة ، والتحرر من سلطة الحكومة الشخصية .. تلك الحكومة التى لاتستمد وجودها الا من أصل واحد هو عبادة البسالة ، عبادة القوى ، عبادة القهر والغلبة والاستبداد ، وما يجتمع حول تلك العبادة من الاوهام التى تتجسم فى رءوس العامة ، وقد جاء العلم ، ففتح للناس أسرار العالم وأصبح العالم بذلك هو موضوع الاعجاب والاكبار ، وصار العظماء أمام هذا العالم الطبيعى وقوته لا نصيب لهم من ذلك الاعجاب والاكبار ، فتجردوا بهذه المثابة عن الاصل الذى كانوا يستخدمونه فى انشاء الممالك المستبدة ، ولكنه مع ذلك قد بقى فى نفوس الناس طرف غير قليل من الاوهام القديمة .. تلك الاوهام التى كانت فى كثير من الازمان كافية لاخضاعهم لشخص واحد يتصرف فى دمائهم وأموالهم من غير أن ينزل لسماع أقوالهم أو الاصغاء لرغباتهم ، لذلك كنا ننادى بتوسيع اختصاص الهيئات النيابية توصلا للحصول على الدستور الذى تتقرر به سلطة الحكومة الشخصية أو حكومة الفرد

انتخابى لمجلس المديرية

وفى عام ١٩٠٨ أراد حزبى ان أكون معأعضائه فى مجلس شورى القوانين ، فرشحت نفسى لمجلس مديرية الدقهلية، لان عضو مجلس الشورى كان ينتخبه أعضاء مجلس المديرية من بينهم فلم أنجح فى هذا الانتخاب ، ثم رشحت

نفسى فى الانتخاب الذى بعده سنة ١٩١١ فنجحت، ولكن طعن فى بأنى لســـت مقيما فى بلدتى « برقين » وألغت محكمة الزقازيق الانتخاب فعدت للانتخاب مرة أخرى ، فنجحت بأصوات أكثر من الاولى . وكان الخـديو فيما يقال يرتاح الى الطعن فى انتخـابى . وذات يوم خاطبنى بالتليفون عبد الله وهبى باشا ودعانى الى الشاى فى بيته، فوجدت عنـده جاد بك مصـطفى الطاعن فى انتخـابى ، فتحادثنا فى شئون الانتخاب ، فقال لى رحمه الله : «ان صداقتى لابيك ، وتقديرى لك يجعلانى أتنازل عن الطعن بشرط أن تأتى أنت ووالدك ، وشكرى باشا المدير للغداء عندى فى قريتى «صدفة» يوم الجمعة المقبل »

فأجبته الى رغبته ..

وفى ذلك الوقت عاد الدكتـور محمد حسين هيكل من أوربا ، بعد أن حصل على أجازة الدكتوراه ، أخـذته معى فى زيارة لكثير من القرى لاقف على حالة التعليم الاولى ، وأقدم بذلك تقريرا لمجلس المديرية ، وقد فعلت

ومن طريف ما يذكر هنا ، اننا مررنا بكتـاب فى احدى القرى ، فوجدنا قلة فى عدد التـلاميذ ، فقلت للشـيخ : « أظن أنك صرفت الاطفال لتنقية الدودة »

فقال : « ليس فى بلدنا دودة ، لانى اذنت الاذان الشرعى فى الجهات الاربع للقرية ، فامتنعت الدودة باذن الله تعالى»

قال هذا وكنا نشم رائحة الدودة حولنا فى المـزارع !

بيع الرتب والنياشين

قلت ان الحكومة الشـخصية ــ او حكومة الفـرد ــ تستمد وجودها من عبادة البسالة والغلبة والاستبداد . وازيد هنا ان الفرد من أبناء الامة فى ظل هذه الحكومة ،

ليست له حياة ظاهرة ولا شرف معترف به الا بالاضافة لشخص الحاكم . ما دام الافندى لا ينقلب زيه يوم العيد الى زى بطل من أبطال القرون الوسطى ، كل صدره قصب يبرق ، وتعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفا لا يستطيع أن يجرده ، ولا السيف صالح أن يجرد . فمهما يكن له من شرف المولد ، ورفعة الاخلاق ، وسعة العيش فانه لا يكون شريفا الا اذا حصل على رتبة أو نيشان

من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف سنة ١٩٠٨ وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة كما يكون بين رجال الجيش ، ولا على خدمة كبرى من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون ألقاب التشريف . وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف يأخذ المؤخر . وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم ، فهى تلعب بأهوائهم وشهواتهم وتأسرهم بها .. وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومات الحديثة ، فكانت أثرا من الاثار الاستبدادية الاولى . وقد عرفت الحكومات الديمقراطية الراقية أن تتخلص منها ، ولكنها ما تزال فى بعض الشعوب من أهم المؤثرات فى الاخلاق خصوصا فى الشعب المصرى

سياسة الوفاق وسياسة الخلاف

فى سنة ١٩٠٨ أيضا كان قد مضى عام على تعيين سير الدون غورست معتمدا بريطانيا فى مصر خلفا للورد كرومر

الذى اعتزل منصبه فى ابريل سنة ١٩٠٧ . وقد عرف بعهد سياسة الوفاق . وهى السياسة التى عادت للمرة الثانية بعد أن حلت محلها سياسة الخلاف بين الخديو عباس واللورد كرومر

وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديو محمد توفيق ، فقد دخل الانجليز مصر على وفاق بينه وبينهم ، فالغوا الجيش المصرى ، واستبدلوا به جيشا صغيرا ضباطه من الانجليز ، ثم محوا العلوم الحربية الواسعة فى المدرسة الحربية ، فبدلا من أن يرقوها حتى تخرج ضباطا كما تخرج مدارس انجلترا وفرنسا قصروها على تخريج ضباط بدرجة .. هم أنفسهم يريدونها ، درجة تجعل الضابط المصرى مرءوسا دائما . ثم أخذوا يخرجون من الجيش العامل كل ضباط الانجليز . وقد دل هذا التصرف فى الجيش على ان الغرض منه اضعاف مصر لا تقويتها . وتلك كانت احدى نتائج الوفاق والتسليم للانجليز بعمل ما يريدون

لقد جاء الانجليز مصر فوجدوا فيها جيشا ثائرا ومجلس نواب ، فألغوا الجيش الثائر واستعاضوا به غيره ، والغوا كذلك مجلس النواب .. وكان حقهم أن يبقوه فلم يفعلوا ، بل لم يستعيضوا به غيره ، نقول على وجه التسامح انهم ألفوا مجلس شورى ضئيلا ليكبر بالزمان فمضى كل عهد سياسة الوفاق ، ولم يفكر الانجليز فى تعديل مادة من مواده حتى يسيروا به الى الامام . وذلك يدل على انهم كرهوا لمصر أن تتدرج فى الحكم الدستورى

واذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية وعملوا لتقوية الحكومة بأى شكل ، فكان من مقتضى ذلك انهم حين اضعفوا حكومة الدستور ان يقووا الحكومة الشخصية

أى الحكومة الخديوية ولكنهم لم يفعلوا بل أضعفوها هى أيضا

ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحقانية وقتذاك ، سعادة حسين فخرى باشا ، رفع تقريرا الى مجلس النظار باستغناء النظارة عن المستشار القضائى مستر سكوت . وكان الخديو توفيق فى سياحته بالوجه القبلى ، فانعقد مجلس النظار وقرر عدم استمرار المستر سكوت مستشارا فى الحقانية ، وارسل بذلك للخديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتياح ، فلم يكن الا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على الغاء ذلك القرار . ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قلوب النظار المصريين وزيادة الاستسلام من جانب الخديو ، ووقعت الحكومة كلها فى يد المعتمد البريطانى يفعل بها ما يشاء . وكان الغرض من ذلك اضعاف السلطة الاهلية سواء فى ذلك سلطة الحكومة وسلطة الامة

كان يجرى كل هذا التصرف الذى من شأنه اعدام كل سلطة أهلية من الامة والحكومة معا والسياسة العالية تجرى فى مجراها على هذا النحو أيضا ، واكبر الامثلة على ذلك التخلى عن السودان وتركه ، وكان ما كان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا الذى كان أحق وزراء مصر على الاطلاق بالتمجيد . ولكنه لما لم ينجح استقال ، وجاءت وزارة نوبار باشا فأخلت السودان . ثم فتح على أنه شركة فى الادارة بين مصر وانجلترا كما تعرفون

التقرب من الانجليز

بعد أن جردت الامة من سلطتها والحكومة الاهلية من هيبتها ، آمن المصريون بأن الانجليز طامعون لا مصلحون ، وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى . واخذ العمد

والاعيان يستعينون فى قضاء أعمالهم غير المتناهية بالتقرب من الانجليز تقربا وقتيا دعا اليه حب قضاء المصلحة الشخصية من القادر القاهر ، ولكن هذا التقرب من طبيعته أن يزول بانقضاء تلك المصلحة ، ثم يتجدد كلما جاءت مصلحة جديدة .. فنتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال وتراخ مفاصل الوطنية الصحيحة ، وانصرفت النفوس طبعا عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل تصرف سيىء للانجليز الى رضاه عنه واقراره عليه . وكان اللورد كرومر والجرائد الانجليزية لا تدع فرصة تمر الا انتهزتها للثناء على الخديو واطرائه بأبلغ الاطراء

وقد بقيت سياسة الوفاق فى مصر ، وزادت وضوحا منذ فشلت معاهدة سنة ١٨٨٧ لتحديد شروط الجلاء . وكان للانجليز فى هذه السياسة الغنم وعلى مصر الغرم.. للانجليز فيها السؤدد والمنفعة ، وللمصريين فيها المذلة والخسارة . وانتهى عهدها الاول بوفاة الخديو توفيق . وابتدأ عهد سياسة الخلاف منذ تولية الخديو عباس حلمى الثانى على الاريكة المصرية . ثم تجددت سياسة الوفاق ثانية فى عهده عند تنصيب وزارة نوبار باشا سنة ١٨٩٤ ، ولكن هذا الوفاق الاخير لم يكن بينه وبين الوفاق الحقيقى المبنى على الثقة والمنفعة المتبادلة الا شبه من الطلاء الظاهرى لأنه كان مسببا على الاستسلام للقوة ، ثم لم يلبث أن توترت العلاقة بين سمو الامير واللورد كرومر فانكشفت عن جفاء مستحكم الحلقات ، ثم تجددت سياسة الوفاق بعد مبارحة كرومر مصر وتعيين السير الدون غورست مكانه ، وكان من نتائج هذه السياسة أن تدخل المعتمد البريطانى لم يقل عما كان عليه من قبل ، بل ربما زاد وامتد الى بعض المصالح الاهلية الصرفة

قانون المطبوعات

فى سنة ١٩٠٩ أرادت الحكومة بعث قانون المطبوعات الذى كان قد صدر ابان الثورة العرابية ، وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأى ، فحملت أنا وزملائى الصحفيون، على ذلك القانون حملة قوية ، ولكننا لم نوفق لان بعض أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية كانوا قد طلبوا شيئا من هذا فيما سبق ، وعارض فيه اللورد كرومر . ثم لما أريد احياء هذا القانون وافق عليه الانجليز ووافق عليه مجلس الشورى بالاغلبية مع الاسف .. وفى صيف ذلك العام سافرت الى أوروبا للاستشفاء ، وعزمت على مقابلة «سير ادوارد جراى» وزير الخارجية الانجليزية لاشكو له تصرف الانجليز فى حرية الصحافة . وأعطانى صديقى محمد محمود باشا رحمه الله كتابا لاستاذه المستر سميث عميد كلية « بلبول » باكسفورد ليقدمنى لوزير الخارجية البريطانية الذى كان تلميذا له . فلما سافرت الى اكسفورد ، وكان أخى سعيد وقتها طالبا بها ، قابلت المستر سميث فطلب منى ان اكتب مذكرة بما أريد ، ثم نسافر فى اليوم التالى انا وهو الى لندره ليقدمنى الى « السير ادوارد جراى » . وفى اليوم التالى ذهبنا الى لندره ، ثم الى وزارة الخارجية ، فاعتذر الوزير عن استقبالى بسبب مناورة بحرية ، واحالنى الى وكيل الوزارة ــ وأظنه المستر ماليت ــ فقدمت له المذكرة ، وبينت له وجوه الخطر على الحرية من هذا القانون ، فوعدنى خيرا

مد امتياز قناة السويس

وفي نفس السنة ــ ١٩٠٩ ــ أرادت شركة قناة السويس

الى تمد امتيازها أربعين سنة جديدة مقابل اربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الى الحكومة المصرية ، وكان المستشار المالى يميل للاخذ بهذه الفكرة ، وكذلك « سير الدون غورست » وبطرس غالى باشا ... فتحدثت فى ذلك الى حسين رشدى ، وسعد زغلول باشا ، فأحالانى على رئيس الوزارة بطرس باشا وعلى المستشار المالى الانجليزى ، فذهبت الى المستشار ، واعترضت على المضى فى هذا الموضوع ، وطلبت منه عرضه على الجمعية العمومية ، وهى أكبر هيئة نيابية وقتئذ فى البلاد ، ولكننى لم أوفق لاجابة طلبى ، فتركته وذهبت الى رئيس الوزارة فى بيته بالفجالة فاستقبلنى بما كنت أعهده فيه من لطف وأدب ، وحادثته فى الامر ، وطلبت منه باسم حزب الامة أن تعرض مسألة امتياز قناة السويس على الجمعية العمومية ، فأجابنى بقوله : « يا لطفى ألما تنزل من السحاب ، لنكون معا على الارض ؟! »

وابى أن يقتنع برايى ، فتركته وسرت فى حملتى على هذا الموضوع . وبعد ذلك اظن أن شركة القناة اشترطت اخذ رأى الجمعية ، لما رات من هياج الراى العام ضد هذا المشروع .. فاستدعانى بالتليفون لاحضر عنده فى وزارة الخارجية ليلقى الى حديثا صحفيا فى مسألة القناة . وعلى ظنى : أنه هو الحديث الوحيد الذى أخذته من وزير أو رئيس وزراء طول مدة اشتغالى بالصحافة

ولما دخلت على بطرس باشا ، وجدت عنده فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية ، فبادرنى بطرس باشا قائلا : « هأنذا أجيب طلبكم وأحيل الامر على الجمعية العمومية تقضى فيه بما تشاء »

وكانت الجريدة هى أول من نشر هذا الخبر . وقد عرض الموضوع على الجمعية ، فقررت رفضه

بعد ذلك فى سنة ١٩١٠ ، كنت فى منزل صديقى على شعراوى باشا ، ومعنا فتحى زغلول باشا ، وابراهيم الهلباوى بك ، فدخل علينا بطرس باشا غالى بلا موعد سابق ولا استئذان ، لانه كان صديقا لشعراوى باشا ، فقال لنا : « علام تتآمرون ؟ .. »

فقال الهلباوى بك : « نتآمر على الحكومة ، لاننا نريد اثارة البلاد لطلب الدستور »

فقال شعراوى باشا : « من أين جئت يابطرس باشا ؟ »

فأجاب : « كنت أتنزه ماشيا فى الجزيرة » فلامه شعراوى باشا على أنه كان يسير بلا حرس ، فقال بطرس : « قد يكون معك الحق ، لانى تلقيت منذ أيام كتبا يهددنى فيها كاتبوها بالقتل .. ! »

فقلت له : « ياباشا أظن أن الذى يريد ان يقتل لا يهدد .. ! »

وقد أخطأت الظن لانه رحمه الله قتل بعد ذلك بأيام .. وكان لهذا الحادث رنة أسف بليغ ، وعلى الخصوص فى البيئات المتعلمة

قضية الجريدة

قدمت أن الخديو عباس حلمى لم يكن راضيا عن شركة « الجريدة » ولا عن حزب الامة ، وأن بطانته كانت تعارض « الجريدة » وتعمل لحل الشركة . وقد أفلحت هذه البطانة فى اقناع بعض الشركاء بالخروج على الشركة ، وطلب حلها سنة ١٩١٠ ثم رفع هذا البعض دعوى أمام المحكمة المختلطة طالبا هذا الحل . وقد دفعت مصاريف الدعوى — على ما علمت — من الخاصة الخديوية ، وأنعم على هؤلاء المدعين بالرتب . وكان المحامى الذى رفع الدعوى هو محامى الخاصة . فكتبت مذكرة بكل هذه التصرفات

وأعطيتها للافوكاتو جرين المحامى عن الشركة

وقد كان الامير حسين كامل (السلطان حسين) رئيسا لمجلس شورى القوانين وقتذاك فدعا محمود باشا سليمان، وعلى شعراوى باشا ، وانا ، ولما استقر بنا الجلوس ، قال الامير حسين : « أنا لا أفهم أنكم ترفعون دعوى على خديو البلاد ! »

فقلت له : « يا أفندينا وانا كذلك .. ولكن سمو الخديو هو الذى رفع علينا الدعوى »

وما كدت أسرد له أدلتى حتى دخل علينا بطرس غالى باشا رئيس الحكومة ، واتفقنا فى المجلس على أن يطلب المدعون تأجيل الدعوى الى أجل غير مسمى .. ومازالت مؤجلة حتى الآن !

محاضرات فى « الجريدة »

وقد كانت صحيفة « الجريدة » عدا ما تقوم به من خدمة وطنية وسياسية تقوم برسالة ثقافية بين الشباب المتعلم ، فكان يؤم دارها كثير منهم للاستماع الى محاضرات عدد من كبار الاساتذة والمحامين المصريين . وقد اتفق وقتئذ أن ناظر مدرسة الحقوق الانجليزى — وكان أستاذ القانون المدنى بها — لم يكن من الحاصلين على شهادة الليسانس بل سقط فى امتحان الليسانس فى باريس ، فأخذت « الجريدة » تطالب الحكومة أن تستبدل به غيره، فلم تجب الى طلبها ، فدعوت المرحوم الاستاذ أحمد عبد اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار الجريدة، فقبل هذه الدعوة ، وكان يؤم دروسه الكثيرون . ومن تلامذته كامل البندارى باشا ، وأحمد صديق باشا ، وغيرهما ..

وفى ذلك العام — عام ١٩١٠ — وضع حزب الامة مشروعا

دستور ، وفكر فى أن يقدم للخديو عريضة من أهالى
بلاد بطلب الدستور ، وقد حررت هذه العريضة ، وأخذ
هالى فى امضائها . وهنا لا أنسى مكرمة للمرحوم حسن
شا رضوان ، وكان وقتئذ مديرا للغربية ، فقد قابلته فى
زارة الداخلية ، واسررت له الامر ، وطلبت اليه أن يغض
طرف عن هذا العمل الذى سنبتدىء به فى مديرية
غربية ، فأجابنى : « كلا .. لن اغض الطرف . بل
ساعد على امضاء العريضة من الاهالى .. ! » . وقد
فى هذا المدير الوطنى بوعده ... !

الفصل السابع

٤ رجال عرفتهم

* حسن عاصم باشا
* مصطفى كامل باشا
* قاسم أمين بك
* احمد عرابي باشا

حسن عاصم باشا

قبل أن تجمعنى الصداقة بالمرحوم حسن عاصم باشا، جمعنى العمل معه فى النيابة العمومية . وكان وقتئـــذ « افوكاتو » عموميا .. عرفته رئيسا ، وعرفته صديقا ، ثم عرفته مستشارا ، ثم سر تشريفاتى لسمو الخـــديو عباس حلمى الثانى ، ثم رئيسا للديوان الخديوى . فمـا وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبادىء ، وأقوى تمســـكا بنهج الاستقامة من هذا الرجل . فمن عرفه عرف خلقا صريحا لا يتلون ، وسيرا قويما لا يعوج ، ومبادىء راسخة لاتتغير ، حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطـرف ، وشـــدة التمسك بالحق ، ويعدون ذلك عليه جفاء فى الاخـلاق ، وما به جفاء ، ولكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش فى ميدان القتال

كان عاصم باشا رجـــلا أسمر اللون ، قصير القامة ، جذاب الطلعة ، مقتصدا فى حركاته عندالحديث ، جهورى الصوت يميل فى لبسه دائما الى السواد على طراز واحد، وقورا فى ملبسه ، وقورا فى مجلسه ، لا يخرج الا نادرا، قليل الضحك كثير التبسم ويمتاز عن كثير من أمثاله بأنه لا يغلو فى ارضاء الناس بالقول ، ولا يعد بعمل مالا يريد

وقد اشتغل رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم لنيـــابة طنطا ، ثم مفتشا فى لجنة المراقبة ، ثم عين افوكاتو عموميا، وبقى منتدبا فى لجنة المراقبة ، فلما طلب اليه مظـــلوم باشا ناظر الحقانية وقتئذ والسير سكوت مستشـــارها ؛

أن يباشر عمله الجديد .. رفض الاشتغال بوظيفة الافوكاتو متى كانت خلوا من العمل الجدى ، لان مسيو لوجريل لم يكن يريد مشاركة غيره فى العمل ، فوعده الناظر والمستشار أن سيكون له عمل معين ، وانه لن يبقى الا بضعة أشهر ، ثم يعين نائبا عموميا بدل المسيو جريل

ولكن الحال قد تبدل ، واتهم عاصم بأنه معاد للانجليز .. فأمر اللورد كرومر المستشار السير سكوت بفصله من وظيفة الافوكاتو العمومى ، وكان سكوت من العدالة فى الاخلاق بحيث يعز عليه تنفيذ هذا الامر فى حق رجل ، عرف هو والناس اجمعون مكانه من الفضل والعمل ، وموضعه من اصالة الرأى والاستقامة ، فكان المستشار فى مركز حرج بين تنفيذ أمر المعتمد البريطانى ومعاملة عاصم بما يقتضيه العقل وتوجبه المصلحة من أن يرقيه ، كما وعده ، لا أن يفصله من غير ذنب . فبقى الامر بين البقاء والاقصاء .. كل هذا وعاصم يعمل بغيرته المعروفة وجده الزائد من غير أن يهتم بفصله أو ترقيته

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق أنه فى هذه الفترة بين الفصل وعدمه وضع مشروعا يقضى بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتبا باليومية فى محكمة الاستئناف التى غصت بالكتبة الى المحاكم الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة الى الموظفين ، فدخل عليه باشكاتب المحكمة بخطاب نقل هذا الجم الغفير ، وقال له : « مالك ولهذا العمل ؟ والامر بفصلك تحت الختم » . فأجاب :

ـ انى لا أشتغل الا للامة .. وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى ، فلا مندوحة عن القيام بواجباتى

بقى أمر الفصل تحت التقديم الى مجلس النظار حتى وجدت وظيفة مستشار من الدرجة الثانية فى محكمة الاستئناف فعين فيها ، ولم يلبث فيها طويلا ، ثم عين سر

تشريفاتي لسمو الخديو ، فوضـــع للتشريفـــات نظاما وقواعد . ثم رقي الى وظيفة رئيس الديوان الخديوى . وما لبث ان تغيرت ثقة سموه فيه من غير ذنب اتاه الا حب محافظته على مبادئه واخلاص النصح لسموه ، فقـوبل على ذلك بالابعاد والاحالة الى المعاش .. ثم تفرغ لاعمال الجمعية الخيرية الاسلامية التى له من الفضل فى ايجادها وبقائها القسط الكبير

أما مذهبه الســـياسى ، فكان رحمـــه الله يرى رأى حزب الامة ، ويعمل لنشر مبدئه ، وهو الاعتدال والدأب على أن تنال الامة الاعتراف بشخصيتها لتنال الاســـتقلال التام

مصطفى كامل باشا

لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل ، فحياته معروفة مشهورة .. ولكنى أقول موجزا :

ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته ،فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى . فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير ، فانما تطرى الوطنية . واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل .. كأنما هو والوطنية شىء واحد .. !

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم نعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الامة فى أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه ..

كل هذا دل على ان الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك .. هو التضامن القومى ، والجامعة الوطنية

ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية .. ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة الى اقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله ، وتخليدا لذكره، واعترافا من الامة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، وتجسد لهذه الروح الطاهرة

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات ، وفتحنا الاكتتاب على صفحات « الجريدة » وتكفلنا بالقيام بهـذا العمل ، ولو اننا لم نكن من حزبه السياسى ، لان مصطفى كان مصريا لجميع المصريين

قاسم أمين بك

كان قاسم أمين من أصل كردى ، لان جده أمير من أمراء الاكراد ، أخذ ابنه رهينة فى الاستانة لخلاف كان بين الاكراد وبين الدولة العثمانية . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم أمين بك والد قاسم بك ، فجيء بى الى مصر فى زمن اسماعيل باشا ، ودخل فى الجيش المصرى ، حتى رقى الى رتبة اميرالاى ، وتزوج بكريمة المرحوم احمد بك خطاب فكان أكبر أولاده قاسم

ربى قاسم بك التربية المعتادة لامثاله فى مدارس الحكومة . وكان ممتازا دائما بجده وحدة ذهنه وقوة ذكائه . فلما أتم دراسته بمصر أرسل فى بعثة الى فرنسا ، فأتم دروس الحقوق ودخل خدمة الحكومة فى سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها غير عامين حتى عين مندوبا بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ثم نائب قاض ، فمستشارا فى الاستئناف

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم ، يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث .. ولكن على الرغم من ذلك ، كانت نفسه بطبيعتها مستعدة لان تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب .. فان قاسم قال :

« اقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة ، واعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الاشياء والناس »

كان قاسم بك اجتماعيا لا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون أدمغتهم محافظ لآراء الغير .. فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير أن يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب من الرأى . لا .. لم يكن كذلك أبدا ، بل كان مفكرا بالاصالة ، نقادا لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها الا اذا اعتقدها ، وصارت له بما قام فى نفسه من الادلة اليقينية

بحث قاسم امين فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها انها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال

وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد ان المرأة هى الأساس الاول لبناء العائلة ، فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية ، وأطال فى ذلك التفكير ، واخذ يجمع قوته وعدته ليفك هذا الانسان الضعيف من سلاسل الأسر التى قيدته بها العادة ، وليهدم هذا السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء روح السيدة المصرية عن أن ينتشر بين سمائها الصافية وأرضها المخصبة انتشارا يضىء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عناء الى ذروة المجد والاستقلال

أجل .. ليفك اسر المرأة التى أوقعوها فيه باسم الدين ، وما هو من الدين فى شىء ، فالدين اسمى مما يظنون ؛ فكتب كتاب « تحرير المرأة » ، ثم قفاه بكتاب « المرأة

الجديدة » .. كتبهما فهد ركن سجنها ، وأضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها تحس أنها أم الرجل لها احترامه ، وأخته لها عطفه وحنانه ، وزوجه لها منه محبة لذاتها واعتباره لمركزها .. كما هدى الى ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

كتب فأجاد ، ولم يخش منتقدا ولا لائما ، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من أفكاره ولا لفظ من الفاظه .. ذلك لانه يعتقد اعتقادا كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الانتقاد فى حب البلاد بألا يعبأ بالانتقاص الذى وجه لشخصه ، بل صيره متينا فى رأيه ومكينا فى اعتقاده مجاهرا به فى كل يوم حتى ساعة وفاته

أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل .. عبء السعى بالمرأة المصرية الى نظام العائلة ، وبنظام العائلة الى الرقى الاجتماعى المنشود ، وبهذا الاخير الى استقلال البلاد ..

وقد كان يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال اولئك الاذكياء المجازفين الذين اذا ضم احدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ، انحدر انحدار السيل يفيض فى القول صوابا أو خطأ من غير تدبر كأن معانيه والفاظه لا قيمة لها فى نظره يجود بها اسرافا وتبذيرا . فأما قاسم ، فان كل من عرفه أو سمعه يتكلم أول ما يخطر فى باله انه لم ينطق الا عن روية وفكرة طويلة سابقة .. شأن الرجل المتحرج فى ذمته لا ينشر بين الناس الا ما قام له الدليل الواضح على صحته

وان الذى يدرك معانى قاسم أمين ، أو أغراضه ، وتوجهه بكليته الى العلم والفكر ، ربما يظن انه ككثير من العلماء والمفكرين فاتر الطبع ، ساكن الاعصاب .. كلا ، لم يكن كذلك ، بل كان ملتهبا فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل آن

بينه وبين الباقين بونا بعيدافانهم اذا حضرتهم هذه الوطنية انفعلوا ، ولكنه اذا جاءته هو انفعل وانفجر انفعاله على قلمه ولسانه

كتب « الدوق داركو » كتابا هجا فيه المصريين وانحى على دينهم ، وسفه أحلامهم وقبح عاداتهم وأخلاقهم ، فانبرى له قاسم ، ووضع كتابا باللغة الفرنسية مكينا فى معناه ، ساحرا فى اسلوبه ، قويا فى تركيبه .. دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء منها ، وقارن بين حال المسلمة وحقوقها فى الاسلام وبين حال المرأة الاوربية المتمدنة ، فكان لهذا الكتاب صدى فى عالم الكتابة الاوربية

وقابلت قاسم أمين بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل باشا فقال : « ما انت وهذه الحركة القائمة ؟ » . قلت : « على ما قد قرأت » . قال : « انهم يقولون انك بالغت فى وصف الروح الوطنية ، وانك تعلق عليها آمالا ، وقد لا تكون صادقة » . قلت : « والله ما اخترعت ، ولا بالغت فيما كتبت ، ولكنى رأيت رأى العين شعور التضامن يتجلى أمامى على رءوس الناس فى الشوارع والطرقات ، فما فعلت شيئا أكثر من انى أرسلت الالفاظ لتلبس هذا المعنى الطاهر وسطرتها على صفحات « الجريدة » .. وهل انت تقول انى بالغت مع القائلين ؟ »

فانبرى يقول : « انى أتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحال الشريفة .. ولو كنت أخفف عليك فى الحكم ، لقلت انك فى نظرى أميل الى التقصير فى هذا الموضوع منك الى الغلو والاغراق . ان هذا الشعور الوطنى الشريف .. هذا المولود الحديث الولادة الذى خرج من دم الامة واعصابها . هذا هو الرجاء فى المستقبل .. هذا هو الذى يجب عليكم جميعا أن تباركوا عليه وتتعهدوه حتى يصير شابا .. هنالك تنالون الاستقلال »

احمد عرابى باشا

فى سنة ١٩١١ توفى احمد عرابى باشا قائد الثورة العرابية التى نشبت سنة ١٨٨٢ ، أيام كنت صبيا فى العاشرة من عمرى . ولما كان غفر الله له من نوابغ المصريين وقد لعب دورا مهما فى تاريخ مصر ، أود ان أسجل رأيى فيه فى هذه المذكرات :

لقـد كان مستقبل مصر طوع يدى هذا الرجل .. ان أصاب الفكرة ، وحزم الرأى ، واتقن العمل ، جعـله مستقبلا سعيدا .. وان عجل ولم يتدبر وانقاد لشهواته أو شهوات زملائه وقعت مصر فى التعاسة .. ومن نحس الطالع ان الذى جرى هو آخر الفرضين !

لعرابى حسنات قبل الثورة .. له حسنة رضيت عنها الامة وفرحت بها ، رضيها الخديو توفيق باشا ، وسار عليها العمل . تلك الحسنة الكبرى هى الدستور .. فالدستور المصرى من عمله ، ومن صنع يده ، ومن آثار جراته .طلبه عرابى ، لا بوصف أنه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف انه وكيل وكلته الامة فى ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الامة ومشايخها . فأما كون القوة العسكرية هى التى كانت الآلة لتنفيذ ارادة الامة فى ميدان عابدين ، فذلك ان لم يكن مشروعا قانونا، فانه مشروع بتقاليد الامم ، لانه هكذا جـرى فى كثير من البلاد .. وكان القائد للحركة الدستورية فى كل بلد يحمل على الاكتاف ، ويهتف باسمه فى الشوارع والنـوادى

والمجالس ، فعرابى حقق آمال الامة بالدستور ، ولم يرتكب فى ذلك جريمة ، ولم يسفك دما ، بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاما لابسا كسوة عسكرية

لا يجوز لنا ان نغمط حق الرجل فى انالتنا الدستور ، بل يجب علينا ان نردد له ثناء آبائنا يوم صدر قانون الانتخاب ، وقانون مجلس النواب .. فان كانوا بعد ذلك لم يستطيعوا حفظ مراكزهم ، او اذا كانت انجلترا اغلقت المجلس ، والفت قانونه يوم دخولها ، فذلك ليس من خطأ عرابى المباشر . ومع ذلك اذا كان فى اخريات الامر او فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس ، وضغط عليه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور

لعرابى سيئات بعد ذلك ، فيما يتعلق بخروجه على خديو هادىء من غير مصلحة عامة للامة ، وفى عدم تقديره حالة امته من القوة والضعف تقديرا صحيحا ، وفى الجهل بالمقارنة بين قوته الحربية وقوة انجلترا ، وفى الانخداع ببعض المهيجين الانجليز ، وبكلمات بعض نوابهم الاحرار

عرابى له حسنة كبرى ، وسيئة كبرى .. حسنة عمدية ، ومعظم سيئته خطأ وجهل .. فأما الخيانة ، فذلك امر لا نعرفه فى زعمائنا المصريين المحسنين والمسيئين على السواء . وكان من شأن هذه السيئة التى عوقب عليها ان تأكل الحسنة الاولى ، التى أسداها وهى الدستور . فيصبح بعد ذلك على الاقل انسانا لا له ولا عليه كبقية خلق الله . ولكن كان الامر على غير ذلك ، فان الرجل عاش فى منفاه مذموما عند قومه . فلما جاء من منفاه ، وهو شيخ اشيب ، لم يحترم له شىء من حسن نيته ، ولم يحفظ

له شيء من تاريخه الطيب ، بل اتهم ضميره بالخيانة ولا يعلم الضمائر الا الله

الرجل ما قابلته ابدا ولا جالسته مطلقا ، ولكنى اظن ان سوء مقابلته من اصحابه ومواطنيه غيرت قلبه ، وحطت من همته ، فأخذ يدافع عن نفسه بعض الاحيان دفاعا اقل تناسبا مع اسمه وملكاته ، ولا ينطبق على قائد كبير مثله قابله الدهر باليـد العسراء ، وجعل الفشل قيدا لجهاده فى خدمة بلاده

لا أنكر ان عرابى أساء الى وطنه وامته ، ولكن يجب ان اسارع بأنه أساء غير قاصد اساءته .. اساء من حيث أراد ان يحسن ، واضر من حيث أراد أن ينفع ، فله ثواب النية وعليه مسئولية النتيجة

نعم عليه مسئولية النتيجة .. ولكن ما اظنه منفردا بها ، لان الحكومة يجب ان تتحمل منها نصيبا أيضـا ، ومجلس النواب يجب ان يتحمل منها نصيبا .. كل على قدره ، بل أعيان البلاد وتجارها يجب عليهم ان يتحملوا من المسئولية شيئا ..

يقولون ان عرابى اخافهم بحد السيف ، والواقع اننا ما سمعنا ان رجلا واحدا قتله العرابيون ، لانه تنبـأ بسوء العاقبة ، وانذر وحذر ، ووقف لهم فى طريق الثورة موقف الخصم الالد .. فعرابى لا يصح ان يكون وحده هو المسئول عن جميع الاعمال التى كونت الثورة ، وادت الى هذه النتيجة السوداء ...

الفصل الثامن

رحلتي إلى أوربا وإلى المدينة المنورة

* فوائد السفر الى الخارج
* ماكل باريس لهو
* الانجليز في بلادهم
* ماذا رأيت في مقام الرسول

فوائد السفر

فى السفر ما يملأ العقل راحة ، والنفس رضا ، ويفرج عن القلب هما • وما أكثر هموم المصرى • وكيف يرتاح ويسرى عنه الهم والنظام الاجتماعى مختل ، والامة تشقى بأمراضها الثلاثة الفقـــر والجهل والمرض ، ومصر مازالت محتلة بالاجنبى ، والحكم غير مستقر ؟!

فى السفر ماذكرت من الرضى ، ولكن فيه أيضا مايميت القلب ، ويشغل الفهم اذا قارن المصرى بين ماكان يراه فى بلده من فشل الامة فى حقها ، وبين مايراه فى غير مصر من ديمقراطية صحيحة كاملة ، فيها الفرد يســاوى الفرد حقيقة ، ولا فضل لاحد على أحد الا بمقدار نفعه لقومه • وليس لاحد من السلطة الا ما أرادت الامة أن تعطيه لا هبة ولا مكافأة ، بل واجبا وفرضا يحاسب عليه حسابا عسيرا

فى السفر ما رويت فى الحالين ، وكذلك فى الحياة ، لاشىء الا يدور بين النفع والضرر ، ولا حال بين النعيم والشقاء

ليس على أن أدخل للقارىء من باب الشعراء ، فأتكلف له وصف السماء وما تفعل الريح فى وجه الماء • ولكن على أن أنقل له الوقائع فىرحلتى الى باريس سنة ١٩٠٩ كما رأيتها منذ نحو ثلاثة وخمسين عاما

فى البحر كما فى البر الناس هم الناس ، لاينزلون عن شىء من طبائعهم الاصلية ، ولا ماصار لهم بحكم العادة والتقاليد ، فاذا جاء الغروب نزلوا جميعا كل الى مخدعه

ليمضي وقتا غير قليل في تنظيف وجهه وما علاه من غبار ، وفرق شعره ثم لبس السواد المعروف « بالاسموكن » للرجال ، وتلبس النساء خير ماالديهن ، وخيره واسع الطوق. وليس هذا عندي بمنتقد في ذاته ، فما كانت النظافة اثما ، ولا التجميل عيبا ، ولكني أرى بوجه عام أن فكرة الزينة تأخذ من الناس مأخذها حتى لقد يفضلها المرء على راحته ، ويغلو في المحافظة عليها حتى أصبحت من حاجاته ، وماهي منها في شيء . ولكن الغلو في الزينة ، وارضاء شهوة التجمل بالعريض تجعل للانسان حاجيا ماليس بحاجي ، فتزيد في مقدار اسره ، وتقوى حلقات القيود والعادات التي يربط بها نفسه في هذه الحياة

حكم العادة

اختلف منا اثنان قال احدهما : « ان العادة القومية هي جزء مهم من مقومات الفرد من حيث كونه فـــردا في أمة معينة ، فالتنازل عن العادة هو تنازل عن احدى المقومات، وليس من عادتنا أن نلبس ملابس خاصة للعشاء ، فما أنا بمغير ملابسي »

قال الآخـــــر : « انا بين قوم نعيش فيهم الآن ، فمن اللياقة أن نشاكلهم فيما يصنعون بما لا يذهب بالمروءة أو تحرمه العادات الشرقية . ولو أن لنا شركات ملاحـــة مصرية تنقل الناس من قارة الى قارة والتزمنا فيهـــــا عاداتنا لاتبعها الذين يركبون مراكبنا »

على ذلك كانت أغلبيتنا نحن المصريين تتراوح في العمل بين هذا الرأي وهذا الرأي ، أعجبني هذا التسامح من الفريقين الا أن المبادىء التي يطرقها لنا العلماء والكتاب كل يوم لتكون لنا أصلا للسلوك في هذه الحياة ، قل أن تخلو من الخطأ ، بل من النادر جدا أن تخلو قاعدة عامـــة من الاستثناء والتخصيص . صدق الامام الشـــافعي اذ

يقول : « ما من عام الا وخصص • حتى هذه القاعدة » !

واني أسوق هذا الحديث لبيان ما استطرد اليه بحث المتناظرين من الاسف على فقدان ما كان لمصر من بحارة وبحرية لو كانت دامت وتبعت الرقي الزمني لولدت كفاءات بحرية تكون مصدرا لتأسيس شركات الملاحة والنقل

وصلنا الى « مرسيليا » ، فاذا هي هادئة على ما فيها من الاعتصاب الذى يدعو الى الاسف لما يسببه من الخسائر ، ولكنه من جهة يدعو الى الاعجاب بقوة التضامن بين عمال البحر ، وتضافرهم على الوصول الى حقهم مهما مسهم من جراء الاعتصاب من الفقر والعذاب

وبعد ذلك وصلنا الى مدينة « ليون » مهد الجد والعمل، وموطن الحرير وكثير من صنوف المصنوعات الفرنسية • وأهم ما لفت نظرى فى هذه المدينة هذه المرة ملاحظة بسيطة جدا أجعلها أساسا للمقابلة بين ما تعمل حكومة الامة ، وما تعمل حكومة الفرد :

هذه المدينة العظيمة تتخللها جنات كثيرة فى معظم ميادينها •• بعضها صغير •• وان كان وارف الظل ، نافعا جدا ليكون ملعبا للاطفال آخر النهار ـ وبعضها كبير جدا « كالروضة الكبرى » • دخلت فى كثير من هذه الرياض الجميلة التى يظهر من تخطيطها وتقسيمها أنه ينفق لحفظها مبالغ طائلة ، فما رأيت على أبوابها بوابا يعترضنى ، فيطالبنى بدفع رسم كما كان يقف بواب الازبكية يطالب الصغير والكبير والغنى والفقير بدفع رسم معلوم !• ان حكومتنا غنية عن جمع رسم ضئيل•• مثل هذا الرسم لا ينفعها ، ولكنه يضر الفقراء ، وهم الاغلبية العظمى من الشعب ، الذين يحتاجون الى التمتع بالحدائق التى أنشئت من أموال الشعب

ماكل باريس لهو

وصلت الى باريس . وفى هذه المدينة كثير من الاشياء غير أسباب اللهو ، ودواعي الطرب ، وميادين اللعب .. ولكن بعض كتاب الشرق قد اعتادوا أن يصفوا ما ظهر لاعينهم لاول وهلة فى شوارع الزينة دون مابطن فى جوف المصانع الكبيرة والصغيرة من المخترعات ، وما امتلأت به معاهد العلم من التقريرات والبحوث فى العلوم والفنون . فما كل باريس لهو ، ولا عيب عليها فيما به يرمونها . ولكن العيب على من يكتفى من النظر الى الاشياء بلمحة ، وفى الحكم عليها بمسحة من الظاهر

كذلك كان يصنع بعض كتابنا ، وكذلك كان يطبق أغلب كتاب الغرب علينا الحكم بالظواهر وقد يكون ذلك بغلو وببعد عن حدود المعقول ، ويقرب سياحاتهم من قصص ألف ليلة وليلة : يتفق لاحدهم أن يرى جماعة يصلون على النبى ، فينقل عن مصر أن معبودها «محمد بن عبد الله»!

لا يظننى القارىء أننى قد وقعت من المبالغة فيما أحذر منه ، ولكن بين يدى كتاب من صديق فرنسى جاء فيه أنه قابل انكليزيا على ظهر الباخرة انتقل بهما الحديث من موضوع الى موضوع حتى وصل العرب . قال الانكليزى وأكد تأكيد ذى الرابطة بين قومه وبين العرب : « ان العرب يعبدون الشمس !! »

واستدل على ذلك بأنهم يصلون لها عند الشروق وعند الغروب .. !

وزارتنى فى باريس سيدة تشتغل بتحضير محاضرة عن وصف مصر ، ومن جملة ما اشكل عليها من المسائل الاجتماعية بل المسائل المتعلقة بتحديد مركز مصر السياسى ، هو : كيف أن النساء المصريات محجوبات عن الرجال غير المحارم ، ومع ذلك فانهن غير محجوبات عن الخدم والاتباع الذين هم بالضرورة أجانب عنهن ؟ واستنتجت فكرتها هذه من كونها رات فى أبواب البيوت المصرية وافنيتها رجالا يروحون ويغدون . ولما لم تكن تدخل الى باطن البيوت لتعرف أن هناك « حرملكا » خدمه نساء ، و « سلاملكا » خدمه رجال فقد حكمت حكمها على الظاهر

انظر كيف كان يجنى الظاهر على أمانة النقل وعلى الناس فى الحكم .. لا انكر أن السائح من مشارق الأرض او مغاربها اذا سألته عن قصده وكان من أهل اللهو أجابك انه يقصد باريس . ولكنى لا انكر ايضا أن السائح يأتى من اليابان والصين وغيرهما ليتتلمذ على أساتذة باريس ، ويعرف منهم أسرار الحكمة وقواعد الحق والواجب وسبيل الاقتصاد

أجل ان باريس تؤخذ عنها مودة الأزياء ، ولكنها تؤخذ عنها أيضا أسعار البورصة فى جميع انحاء العالم . واذا كانت الأولمب ، والمولان روج وما بينهما من محلات اللهو ، فانها مدينة السوربون والكليات ، ومدينة التجارة والصناعات

ولئن اشتهرت بجمال النساء وتبرجهن ، فقد اشتهرت ايضا بكاتباتها الفضليات . ولا يغرنك خفة روح الباريسى

وميله الى النكات والمزاح فان فى نفسه ذكاء يتأجج لتحصيل العلم والنبوغ فيه

ولا يدلك على ذلك أكثر من أن باريس تملك شهرتها هذه من مئات من السنين ، فلم يتقلص مجدها ، ولم تسبقها غيرها من المدائن الى صفتها الجامعة بين دواعى الجد ودواعى الهزل

وقد زرت باريس فى سنة ١٨٩٦ و ٩٧ و ١٩٠٦ وفى غير هذه المرات .. ويهمنى أن أشير هنا أننى كنت فى أول مرة زرت فيها هذه المدينة اختلط بطلبتنا المصريين وأناقشهم وأتحرى معلوماتهم واتسمع على حالة أخلاقهم وسلوكهم الشخصى من مخالطيهم . وأشهد انى وجدتهم هذه المرة اكثر اقبالا على العلم واشد اقتناعا بالمسئولية التى يحملونها أمام ضمائرهم وأهليهم وأمتهم

آنست منهم أنهم يعلمون جيدا أنهم ما جاءوا باريس الا لينقلوا العلم الى القاهرة ، وما تغربوا عن أوطانهم الا ليشرفوها ويجعلوها قوية محترمة . لمحت فى وجوههم آمالا كبارا من حيث نشر العلم فى مصر وزرع المبادىء العالية فى بقاعها الخصبة . واقل همومهم فيما يحاولون المسألة السياسية . لذلك عجبت من مقدار جهل حكامنا فى ذلك الزمان بسير هؤلاء الطلبة الراشدين ، وكيف كانوا يظنون أن طلب العلم بباريس بركان الهياج والقلاقل ، وما هو الا خير ونور وسلام

الانجليز فى بلادهم

سافرت الى لندرة وانا لا اعرف من الانجليزية ما يكفى لاستبقاء ابسط الأحاديث موضوعا ، ولكنى مع ذلك كنت معتمدا على أن اللغة الفرنسية معروفة هناك فى كثير من الطبقات خصوصا طبقة الكتاب والطبقة التى لا غنى للسائح عن محادثتها ، فان أمثالهم فى الفنادق الكبرى يتكلمون لغتين أو ثلاثا احداها الفرنسية . وكان يذهب عنى الحيرة بعد ذلك أن لى فى لندرة وغيرها من المدن الانجليزية أصدقاء من المصريين

فلما كنا فى كاليه الميناء الفرنسية انقلبت الحال فجأة حتى أن الحمالين الفرنسيين أخذوا يخاطبوننا باللغة الانجليزية ، وكانت الفرنسية قد غسلت من الوجود على شاطىء المانش ، فشق ذلك على رجل فرنسى كان معى فى العربة . وقد قال للحمال الذى بادرنا بالانجليزية : « نحن نعرف من الفرنسية ما يكفينا للحديث عند الضرورة » . قالها ساخرا معنفا هذا الحمال الذى يعدل عن لغته لغير ضرورة ، فانقلب الحمال بفضل هذه الجملة فرنسيا يفهمنا ونفهمه

وقد ذكرنى ذلك ببعض المصريين الذين يتكلمون الفرنسية أو الانجليزية بينهم فى بلادهم وما هم بذلك بمحتقرى لغتهم ، ولكنهم يتراطنون باللغة الاجنبية حتى يظنهم سامعهم انهم قليلو الاعتداد بلغتهم وقوميتهم

انانية الانجليز

فرغنا من الحمال بهذه الملاحظة ، ودخلنا السفينة التى تجوز بنا المانش الى دوفر .. فأذكر أننى رأيت فى الركب رجلا هنديا يجتنب الناس ، ويقترب منى . وكان كلانا يشعر بجاذبية نحو الآخر . ولم يكن فى المركب من اللون الاسمر سوانا .. وكفى بالتقارب فى اللون ، وبالشرقية جامعا بيننا نحن الاثنين . وكانت حادثة الشاب الهندي « دنجرا » الذى قتل السير كورزون فى لندرة جديدة العهد وقتذاك ، فوقع فى نفسى انى سأشارك جارى الهندى فى استقبال النظر الشزر من الانجليز الذين اشتهروا فى العالم بأنانيتهم حتى اضطر حكيمهم « هوبز » الى أن يقول .. ان أصل الخير والشر فى هذا العالم هو حب الذات ، وانه هو أساس علم الاخلاق عنده . كما اشتهروا بالتضامن الشديد وحبهم لكبار رجالهم مثل سير كورزون القتيل

عولت على الا ابعد عن جارى الهندي وقلت فى نفسى : « ان عادة المصرى أن يكون ضحية لغيره . وما كانت بلادنا أيضا الا ضحية يضحى بها على مصالحة القوى » ! .. للانجليز مصلحة فى أقرب طريق الى الهند ، فماذا جنت مصر حتى تكون هى الضحية لتلك المصلحة ، فقد قال احد ساستهم يوم فتح قناة السويس :

« الآن لزم احتلال مصر »

وقد كان .. وعلى هذا القياس كان أمر بلادنا الجميلة الخصبة فى التاريخ القديم .. لما ذكرت ذلك ذكرت أنى من قوم هم ضحايا الكرم والصبر . توقعت ان يضايقني الانجليز بصفتى هنديا مع صاحبى الهندى . ولكن لم يكن مما توقعت شيء ، فلم أر أحدا بان عليه أثر لما قد

ظننت من تأففهم لرؤية الهندى ، فأكبرت أخلاقهم . غير انى لما خرجت بعد ذلك الى البر . وكان يوم المرافعة فى قضية الهندى صرت اسمع نقلا عن المجالس صحة ماكنت اظن .. فان الهنود كانوا مضايقين من البوليس السرى ، وان كثيرا من الانجليز كانوا يكررون ما قاله بعض كبرائهم ان طرائق التربية الغربية ــ تربية الحرية والعلم ــ مفسدة للشرقيين ، وانه لابد لصلاحهم (يعنون بالصلاح .. رضاهم عن حكم الغربى فيهم وتسلطه على بلادهم) تركهم على ما هم عليه ، فان ذلك خير طريق لسعادتهم أو (دوام استعمار الاوربيين لبلادهم) .. ! !

أمة صنعت مجدها

وجست خلال انجلترا . وكان اطول ما قطعت مسافة من لندرة الى ليفربول . يمر القطار فيها بقرى ومدائن لا يدل منظرها على حب الشذوذ ، ولا على الابتكار الذى اخذ من فكرة الاوربيين مأخذا عظيما حتى صار مقياسا لشخصية الفرد وعلامة على النبوغ ، فان الكاتب الذى لا يولد لغته أسلوبا جديدا لا يعد كاتبا . وكذلك الشاعر الذى لا يأخذ خياله من الطبيعة أفكارا حديثة ومقاصد ابكارا لا يعد شاعرا عاديا . كذلك لا يلفت النظر الى الشيء الا غرابته وجدته ، ولكن على الرغم من ذلك رايت المدن والقرى الانجليزية وقتئذ متشابهة جدا فى تخطيط الشوارع وارتفاع الأبنية والوانها حتى كان يخيل للرائى انها بنيت على فكرة المحافظة .. أو فى حكومة المحافظين على أن الفرد الانجليزى فى فكره وعمله مبتكر طبعا أو كما يسميه أوربيو القارة « أوريجينال »

مر بنا القطار بغير المدائن .. مر بحقول جميلة فسيحة قليلة الغلة معظمها كلأ ترعاه الانعام ، والقليل مزروع

حنطة ، والاقل منه مزروع خضرا وفواكه . فخطر فى نفسى لمشهد هذه الأرض القليلة الغلة كيف أن الانجليز بهذه الأرض أغنياء ؟

خطر لى هذا الخاطر السريع غير الناضج لأنى فلاح من قوم كل ثروتهم مما تنبت الأرض ، ولم ألبث أن لحظت موارد الثروة الانجليزية الطائلة من الصناعة التى كنا نحن المصريين نحتقرها بعض الشيء ، والتجارة التى كنا نأباها بعض الشيء — بسمت لهذا الخاطر ، وذكرت ذلك المثرى المصرى الذى كان لا يجلس اليه أحد الا سأله : كم فدانا يملك ؟. أو كم فدانا من القطن يزرع هذا العام ؟. وأمثال ذلك مما يشف عن فكرته فى أن قيمة الرجل فى ثروته ، وأن كل الثروة هو ما يملك من الأرض وما يزرع فيها من القطن ، فلقد كان مثلى مثل ذلك المثرى المصرى ، وذهلت عن حقيقة اجتماعية من اكبر الحقائق وهى :

ان غنى الأمة وسعادتها ليسا فى خصب أرضها ولا فى صفاء جوها ، واعتدال منطقتها ، وليس بضخامة مدائنها ، بل بمقدار عدد المهذبين من أبنائها ، فهم الذين يبنون مجدها ، وهم الذين يخلقون غناها .. نعم اذا أعوزتها خصوبة الأرض خلقوا لأمتهم بعقولهم وعلمهم من الصناعة والتجارة والاعتماد على الذات والمخاطرة فى سبيل المنفعة ثروة تفوق الثروة الزراعية اضعافا ومجدا طارفا لا يطاوله المجد التليد

تمثال نلسون

دخلت لندرة ، وأول ما يلفت النظر فيها تمثال نلسون، تمثال أقيم على قاعدة عالية جدا على غير المألوف بحيث لا يطاوله فى مكانه الرفيع تمثال أمير من الأمراء أو ملك من الملوك ، فان رءوس أولئك مهما علت لا تطول ربع

القاعدة التى يقف عليها نلسون بقدميه . أجل انه كان فى الحياة رجلا عاليا ، فأعلى قومه مكانته فى الممات على كل من عداه

كذلك يجل الانجليز رجالهم مادامت أعمالهم تشرفهم وترفع أقدارهم على اقدار الذين نالوا الشرف بمجرد الميلاد

لا يفشى السائح مجلسا من مجالس السمر فى الأدب الا ترى الانجليز يتحدثون عن شاعرهم شكسبير بلسان الفخر ، والاجلال والاحترام . ترى تمثاله فى المتاحف وتسمع ذكره فى الاندية ، وتشهد رواياته على المسارح ، ولم يمنعه أنه كان ممثلا من ان يكون فى قلوب الانجليز أعلى مكانة من ملوكهم الأولين

هيدبارك والازبكية

فى أبناء الانجليز عادات تأصلت فى نفوسهم ، وصارت لهم أخلاقا ، أزعم انها هى وحدها السبب فى قوتهم — تلك القوة المستفادة من جدهم فى العمل وتقديسهم لمعنى الواجب . ومن أخص ما لاحظت من تلك الصفات حرية القول والاستماع لكل قائل من غير أن يصادر أحد حريته. من ذلك انى رأيت خطباء كثيرين يخطبون فى حديقة « هايدبارك » بعضهم واقف على الأرض ، وبعضهم يعلو منبرا متنقلا .. منهم الشيخ ومنهم الشاب ، بعضهم على مقربة من بعض حتى نقدت عليهم سوء اختيارهم لهذه المزاحمة المادية للمكان ، والمسرح فسيح الارجاء لا يضيق بآلاف الخطباء . وتمر جماهير الناس بهؤلاء الخطباء ، ويقف كل واحد منهم على الخطيب الذى يعجبه ، فيصفق له مع المصفقين

ليس الهايدبارك هذا منبرا خاصا بأولئك الخطباء

العاديين الذين قد يبدأ الواحد منهم خطابته على فرد أو فردين أو ثلاثة ، بل هو ايضا منبر عام لكبار الساسة والخطباء المفوهين ، فقد كان غلادستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالى واغراضه الكبيرة عمد الى هذه الروضة العامة يخطب فيها الالوف من الناس ساعات متوالية فيحول الامة من فكرة الى فكرة .. ويخرجها من مقصد الى مقصد . وكذلك كان « كرهاردى » ونحوه من خطباء الانجليز الى اليوم يخطبون فى الناس من غير ملاحظة رسوم أو نظام أو اشتراط دعوة حتى تكون الامة واقفة بواسطة هذه الالسن الرسمية على أحوال الحكومة ، فلا يفوت فردا من الأفراد اى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم ، أو تقريب بين أمتهم وأمة أخرى او ضرب ضريبة عامة ، أو اعطاء النساء حق الانتخاب بحيث أن العامل البسيط فى لندن يعرف من خطب الوزراء والنواب فى « الهايدبارك » طرفا أو نتفا من قواعد مصالح الأمة التى مصلحته الشخصية بعض منها ، ولكن كان وزراؤنا ونوابنا — سامحهم الله — يجتنبون الكلام حتى فى سياستنا الداخلية الا ما يكون من التهامس فى الآذان فى الخلوات والنوادى بينهم وبين اخصائهم الأقربين

هذا كله اذا عرفوا جليا مقصد الانجليز أو مقصد السراى فى مشروع من المشروعات . فهل منهم من يقف يوم الجمعة فى حديقة الازبكية فيبين للناس مقاصد الحكومة فى اى أمر من الامور العامة ؟

كلا ان رجال حكومتنا لم يكن يهمهم ايقاف الامة على مشروع أو اقناعها براى او فكرة ولكن الذى كان يهمهم أن يكسبوا من مجلس الشورى كل مشروع يريدونه بأية طريق

اذا كانت أمتنا ليست كأمة الانجليز ، فان من وزرائنا من تعلموا مع وزراء الانجليز فى مدرسة واحدة ، فهل من رأيهم ايضا أن « الشرق شرق والغرب غرب » ؟ .. أم هم فى القـــربى من الامة لوزراء الانجليز .. زملائهم فى المدنية الحديثة .. مقلدون ؟

الى المدينة المنورة

فى سنة ١٩١١ وقبيل الحرب التركية الايطالية بليبيا سافرت مع ابى الى المدينة المنـورة . وان أنس لا أنس وقفتى فى مكتبى لوداع ولدى . اذ وقف كلاهمـــا على كرسى ليستطيع عنـــاقى من غير كلفة على هواه . ولئن انكر على الرجل أن يصف المشاهد التافهة العادية التى تقع لجميع الناس ، فانى من الذين يعطون المقـام الأول لمشاعر الحنان بين الآباء والابناء . وآلام الفراق والشوق الى التلاقى وحب الاوطان ، والميل الى مسامرة الاشـــباه ومودة الاقرباء والاصدقاء ، ورحمـة الفقراء ، ومواساة الضعفاء ، ومداراة السفهاء ، واحترام الكبراء .. تعجبنى روايات هذه المشاعر . ولا أجد حقـا للذين يحتقرونهـا بجانب مشاعر البسالة ووصف آثار القدرة والشجاعة ، ومآزق الخوف والفزع والصفات الاستثنائية التى لا تتفق الا لعدد محدود جداً من بنى آدم لا يخطئهم العد . وأن الناس لمعذورون فى الولع بقصص مشاعر البسالة لأنها غير عادية . وقليل أن يجد المرء فى العادة لذة . ولـكن تلك المشاعر العامية المتواضعة لا ذنب لها الا أنها عادية ، وان كانت فى الحقيقة هى المؤلفة لحياتنا اليومية ، وهى التى بها ، ولها نحيا ونحب الحياه

فما أنس لا أنس وقفة وداع ابنى ، اذ ينظر اكبرهما الى بملء عينيه مفتوحتين جامدتين ، يســـألنى كم يوما أغيب فى هذه السياحة ، فأجبته ثلاثين ، فاذا أنا بابنتى

الصفرى وهى لا تجهل عد الايام تجول فى عينيها قطرات الدمع ، فقلت لا بل شهرا واحدا . ولولا انى كنت عزمت نهائيا على السفر وارتبطت به لأرجأته الى أن يعتاد ولداى على خبره فيخف عليهما امره ، لأنه كان فجائيا لا يعلمانه الا يوم سفرى .. تركتهما ولا شغل لى فى الساعات التالية الا تدبر هذا الشعور واستقصاء أصله فى نفس الحى ، ومقدار فائدة الطبيعة من ايجاده فى قلوبنا الضعيفة

جعلت أتساءل : كيف يغفل والد عن ولده المحبوب بهذا المقدار ، فيتركه فى معترك الحياة البشرية أعزل لا سلاح له من العلم والتربية ؟ عجبت لرجل يحب ولده حبا جما ، فيجعل حبه وقفا على ما يضره دون ما ينفعه . يأمره بالكذب لتحصيل خير مزعوم أو دفع شر موهوم ، والكذب مهلكة ، يطبعه على الملق والرياء والنفاق ، وكلها مهالك . يضرب له بفعله شر الامثال من الاستهانة بالكرامة وحب البقاء الى حد الجبن ، والتبرم بالعهود الى حد اللؤم . فاخلق بهذا الحب الابوى أن يسمى « الكره الابوى »

أبناؤنا أجزاؤنا وصنع أيدينا . هم بررة اذا اردنا ، وهم على ما عودناهم . والمرء أسير عاداته . انهم ان قست قلوبهم ، وفسدت طباعهم وكسدت عقولهم ، فالمسئولية فى ذلك على ما أورثناهم اياه فى دمائهم وأمزجتهم ، وما دعوناهم اياه بعد ذلك من انتهاك حرمات الفضيلة ، وما قصرنا عنه من تصحيح عقولهم بتعليم العلم . واذا نحن تدبرنا وتحرينا الأصلح لمستقبلهم ، فربيناهم على الفضيلة ، وصححنا بالعلم أحكامهم على الاشياء ، وهذبنا أذواقهم ، وقوينا فى نفوسهم ملكة الاخذ عن الغير وملكة الفهم وملكة الانتاج ، أخرجناهم الى الحياة العملية مسلحين يغلبون ولا يغلبون

ما انس لا أنس تلك الوقفة وذكراها يثيرها فى نفسى نداء الصغار « يا بابا » و « يا أبى » و « يا أباه » تبعا للهجات البلاد ، فأشعر بفيض من الحنان لا يدع لغيره من المشاعر محلا من قلبى الى أن ارجع النظر فى هذه الحقيقة المعنوية الحسية معا ،فلا أفهم معنى ولا أرى وجها لاولئك الذين يدعون الله لانفسهم أو عليها بالعقم أو بقلة الولد لانهم يخافون الاملاق ، وما يتمنونه أقبح من الاملاق . وما ضر أحدهم أن يبقى فقيرا بماله غنيا بولده . فيا طالما كان الولد قرة العين ومدفع الفقر ومناط الراحة والهناء ، او ليس من الحمق أن يخشى الفقير كثرة الولد ليخسر زينة الحياة الدنيا بطرفيها : المال والبنين ؟ ! ذلك هو الخسران المبين

من هؤلاء أيضا المتفلسفة المتطيرون الذين يأخذون على ظاهره قول ملك المفكرين ابى العلاء المعرى . يجأرون بالشكوى من سوء العيش ، يغلون فى تقدير متاعب الزواج ، ويجبنون على احتمال العناية بالاولاد ، ويفضلون الرهبنة والعقم لا خوفا من الفقر ، ولا فرارا من الذل ، بل حرصا على راحتهم وارضاء لأنانيتهم . يأخذون من الوجود ولا يعطون ، يستدينون ولا يؤدون . كأنى بأولئك لا يرون الولد الا ثمرة لذة طائفة ، ولا يشعرون بمكانة الأبوة وطهارتها ولذتها التى لا تعدلها لذة عند الذين أوتوا قلوبا تعرف أن تحب ، وصدورا رحبة تسع اللذائذ والآلام على السواء ، ونفوسا كبيرة تستحي أن تكون مدينة للوجود لا دائنة ، مستهلكة غير منتجة . أولئك هم الآباء الاكفاء لشرف الابوة ، وأولئك هم اسعد الانسانية الأكرمون

فى مقام الرسول (ص)

ولا أريد فى الحديث عن زيارتى للمدينة المنورة أن اتصدى لوصف معاهدها قديمها وحديثها ولا أخوض فى وصف الحرم المدنى والحجرة الشريفة ، ولا أنقل طرفا من العادات ، لانى اذا فعلت لاأكون الا مكررا لما ذكره الاستاذ الفاضل لبيب البتانونى فى رحلته المعروفة .. غير أنى أنقل هنا بعض ماشعرت به نفسى فى مقام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فأقول :

متى خرج المسافر من « تبوك » مستقبلا الحجاز ، موجها وجهه نحو المدينة موطن الهجرة ، ومهبط الوحى ، ومقام الرسول (ص) ، تنفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها الى طبيعة الارض التى يمر فيها من « تبوك » الى مدائن صالح الى المدينة المنورة . سهول قليلة مجدبة ، وجبال كثيرة جرد مختلف الوانها ، لاترى عليها شجرا قائما ، ولا نابتا ، ولا طائرا ، ولا شىء الا الفضاء والسكون . منها جبال حمر وسود وزرق ضاربة الى الخضرة كلها موحشة لايأنسها الا محطة السكة الحديد المسافة بعد المسافة . ان تجردت عن جمال الطبيعة المعروف لدينا ، والمصطلح عليه بيننا ، كجنات دمشق ، أو مزارع سهل البقاع ، أو مختلف مناظر لبنان ، فقد بقى لها من الطبيعة جلالها . ولا شك فى أن الجلال قد يكون له فى النفس مايفضل أثر الجمال . تعطيك هذه الطبيعة

الجرداء المهيبة اكبار الصعوبات التى لاقاها النبى العربى محمد بن عبد الله فى سبيل القيام بتبليغ رسالته فى هذه المناطق المترامية الاطراف العديمة الماء ، النادرة العشب ، الكثيرة الاوعار والاجبال . فاذا وصلت الى مدخل المدينة تكتنفها الجبال ، ولحظت على الشمال دار عثمان بن عفان ، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة تحت جبل أحد ، على قرب من مصرعه ، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المضروبة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثار فى نفسك ثائر ذكرى ذلك المجد العربى القديم ، وأشرق على روحك نور تلك المبادىء الشريفة التى كان هذا الحرم مهدها ، ومصدر تشععها على أطراف العالم من اقصاه الى أقصاه . هنالك تعذر الذين يقولون : رأينا النور من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء الى السماء . لم نر ذلك النور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نورا لايحتاج فى انبعاثه الى هواء يحرك ذراته وينقلها ، ولا الى أجسام ينعكس عليها نور العلم والفضل ، نورى الهدى . انهم لايرون نورا حسيا كما يقال وكأنهم يرون نور الهدى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا انك على كل شىء قدير

دخلنا الحرم المدنى لاول مرة من باب السلام فى زحام الزائرين مختلفى اللغات والالوان والازياء والاجناس ، دخلنا ذلك الفناء الرحب ، فناء الرجل العظيم ، والنبى الكريم ، والرسول الامين ، فما هى الا نظرة الى مانحن فيه ، وتذكرة لما مضى من الاثر حتى يمتلىء القلب هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل الجبين عرقا من الوقوف أمام مقام من لايطاوله فى مجده مطاول ، ولا يضارعه فى مقامه واحد من بنى حواء .

فكلهم لديه سواء ، مغترف من بحر علمه ، ومستنير بهديه ، أو معترف له بسؤدده ورفعة مقامه . فالذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه ، يرونه بحق سيد الخلق على الاطلاق ، والذين لم يؤمنوا ، لايجادلون فى أنه الرجل كل الرجل فضلا وكرما . والشارع الحكيم أحاط بالعظائم والدقائق من أحوال الناس ، والشجاع عديم المثال . هاجر الى المدينة وهو لا يملك من الدنيا الا نفسه وصحبة صديقه وهو على هذه الحال ، وفى تلك البلاد المجدبة وبين الاعراب لد الخصام . على هذه الحال قد أخاف الاكاسرة والجبابرة أصحاب الاموال والعروش والجنود أولى القوة بكل أسبابها ومظاهرها . ولم يكن له مما فى أيديهم شىء ، ولكن الله آتاه العلم والحكمة والنبوة والرسالة ، فكان له النصر ، وما النصر الا من عند الله

فمن ذا الذى يعرف تقدير النسب بين الاشخاص والاشياء ، ثم يزور قبر محمد ، ولاتخضع نفسه لهيبته ، أو لا يقصيه الادب عن مس المقصورة أو اطالة المكث على مقربة منها ، الا على نحو مايصنع فقيه المسلمين عبد الله ابن عمر ، اذ كان يعقل بعيره فى خارج الحرم ، ثم يدخل فيقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبى . ثم يقفل راجعا من حيث أتى .. ! . على أنى مع ذلك أجد عذرا لهؤلاء العوام الذين يقتربون من الحجرة ، ويخرون على الاعتاب للاذقان سجدا . ثم يتمسحون بقوائمها ، ويدخلون شفاههم من الشباك يسرون كلاما طويلا أو قصيرا . فان المحبة قد تجب كل ماعداها من الملكات فى تلك العقول ، التى نمت فى أحضان القلوب لا فى أحضان العلوم فيذهلون عن تقدير النسب ، ويجاوزون حدود اللياقة . ومع ذلك فان من الاعراب من لاحظت من هيئتهم الوقوف

عند حدود التأدب ، سواء كان ذلك فى زيارة قبر الرسول ، أو فى زيارة الشهداء

من ذلك اننا زرنا نحن وأصحابنا مقام سيدنا حمزة صبح يوم زيارته . فلما فرغنا من زيارتنا وقطعنا ميدانا فسيحا من الرمل ، حيث كانت عرباتنا تنتظرنا فى الجهة المقابلة ، اذا بنا نرى الاعراب زمرا راكبين جمالهم حاملين اسلحتهم ، كلهم يعلق فى كتفه بندقية ، ويشد فى وسطه خراطيش رصاص وقد يكون الى جانبه غدارة أو خنجر ، وسيفه الى جانبه . مع ذلك كله وقفنا ننظر ماذا يفعلون ، فاذا هم يفدون من المدينة جماعة جماعة ، ينتظر بعضهم بعضا فى ذلك الميدان الفسيح تحت مسجد سيدى حمزة حتى كملوا أربعمائة هجان وقفوا وأمامهم علم أخضر يظل رجلا منهم هو خليفة السنوسى فى مكة والحادى يحدو لهم شعرا بصوت جميل ، وهم يرددون عليه هذين البيتين :

سيدى حمزة وياعم الرسول قد أتينا فى حماك
نرتجى منك الشفاعة والقبول لا تخيب من أتاك

يردد هذا الجمع الكبير هذين البيتين فى آن واحد على نغمة ما أجملها ، فما علمت غناء فى مثل هذا الظرف اشجى نغمة ولا آخذ بالقلب من هذا الغناء الذى سمعته . يفعلون ذلك على بعد من المسجد تحية القدوم ، ثم يترجلون فيدخلون للزيارة . وسألت عنهم .. فقيل لى أن الخليفة السنوسى حضر من مكة للزيارة فى هذا الموسم ، مولد سيدى حمزة ، وليلة المعراج .. فلا يحل بأرض قبيلة من قبائل الطرق الا دعوه للاستراحة عندهم ، ثم يتبعه من مريديه جماعة ، فلا يصل المدينة الا وهو فى مثل هذا الجيش من العربان المسلحين من

تلاميذ الطريقة السنوسية . يالله ، ما أفعل الاعتقاد فى القلوب ، وما أقرب البدوى من السير وراء اعتقاده

على هذا الحرم الشريف تخيم السكينة ، فتزيده هيبة على هيبته ، ووقارا على وقاره . ومع أنه غاص دائما بالناس من مختلفي الاجناس .. لاتسمع فيه صوتا فيما بين أوقات الصلاة الا تقريرات المدرسين فى زوايا الحرم ، وحفيف الحمائم تنتقل من الحصباء الى ذرى الحرم ، لايهولها كثرة الناس ، فهى فى غاية الانس ، لاتعرف كيف يهاج الطائر ، ولا تتصور الوقوع فى حبائل الصيادين ، نواعم لاتعرف بؤس العيش ، آمنة لايأتيها فيما حرمه النبى خوف ، فانه حرم من دخله كان آمنا . فاذا جاء وقت الصلاة انقلب السكون ضجة ، وهرع كل من فى المدينة رجالا ونساء الى الحرم لشهود صلاة الجماعة

وللنساء هناك مصلى خاص بهن لايتعدينه الا اذا كثر عنه عددهن ، وضاق عن احتوائهن كما كان ذلك وقت صلاة العصر التى بعدها ، احتفل فى صحن الحرم بقراءة قصة المعراج . وقتئذ كان كثير من الناس فى المسجد الى جانب الرجال .. على كره من أغوات الحرم على ماظن ، فانى رأيت بعضهم يحتفظ جدا بجعل النساء لا يتجاوزن حدود مصلاهن الا للزيارة . ولما قرئت قصة المعراج قام بعض الاعراب الجالسين على الحصباء فى صحن المسجد يحصب بعضهم بعضا وهو يقول (حجينا حجينا) كأنه يشهد الناس أيضا على زيارته للرسول فى هذا الموسم

وللناس فى المدينة عناية بحضور الدروس ، فقد تجد فى الحلقة ، من غير الطلبة ، كثيرا من المستمعين . أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الاستاذ

الكبير الشيخ حمدان الونيسي مدرس الحديث والبيان بالحرم الشريف . ولمناسبة ذكر المدرسين يمكننا أن نصرح بأنهم يدرسون هناك التماسا للبركة ، لايطلبون على عملهم جزاء ولا شكورا

غير أن من الزم الاشياء تشجيع العلم فى منبته ، أى فى الحرم المدنى . وذلك قل أن يكون الا بمكافأة أولئك المدرسين ، لا ليزيد اجتهادهم فى تعليم الناس شريعة محمد حول مقامه الكريم ، ولكن لتستمر مجاورتهم ، لان المدرس مهما كثر اجتهاده اذا ضاق به العيش فى المكان الذى يقطنه اضطر اضطرارا لهجرته ، وليس ذلك من مصلحة العلم . حقيقة أنهم يؤتون بعض الرواتب سواء من الدولة أو من الوقف ، ولكنها رواتب زهيدة جدا لاتفى بشىء من حاجات المدرس المنقطع للتدريس . بحثت فى ذلك فتلقفت أطرافا من الروايات مرجعها جميعا الى أن المزورين المطوفين وهم الذين يتصدرون لتعليم الناس كيف يزورون ، وماذا يقولون وبماذا يدعون ، هؤلاء وهم من غير العلماء بالدين ولابالتاريخ ، ولابغيرهما ، يأخذون هذه الوظائف بالوراثة . ومما بلغنا من غير سند ، انه اذا جاء الحرم رزق يخصص للعلماء ، قال المطوفون أنهم هم العلماء ، فاذا كان للأشراف قالوا انهم هم الاشراف .

مصر والحرب التركية الايطالية

وما كدنا نعود من المدينة المنورة ـ أبى وأنا ـ حتى كانت الحرب التركية الايطالية قد نشبت فى ليبيا ، واغارت ايطاليا على طرابلس ، فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت ادعو اليه من ان مصر يجب أن تكون للمصريين ، وقد اخذت أنبه ـ على استحياء ـ الى واجب

مصر فى هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تستطيع أن تنقذها من الاحتلال البريطاني الذى لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتماد على أنفسنا

وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكنى لم ألتفت الى غضبهم ، واتفق أن جاءنى كتاب من تاجر بدمياط لا أعرفه ، يقول فيه ان الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز فى عرض البحر ، لأنها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر ، فذهبت الى حسين رشدى باشا وزير الخارجية وقتئذ وأطلعته على الخطاب ، وطلبت اليه التوسط للافراج عن السفينة ، فخابر ممثل ايطاليا فى مصر ، فأفرج الطليان عنها ، وعادت السفينة الى صاحبها

الفصل التاسع

مع سعد زغلول والخديو عباس

* العلم المصرى والاستقلال
* تأليف أول وفد مصرى فى عهد الخديو عباس
* الوطنية ضريبة لا منحة
* سعد زغلول ممثل المتعلمين الاحرار
* طلبوا وحدة مصر وسورية سنة ١٩١٢

العلم المصرى والاستقلال

فى سنة ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه عليها حسين رشدى باشا ، وتولى يوسف وهبه باشا وزارة الخارجية ، فذهبت الى رشدى باشا أطلب اليه أن نبدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ماوقع لتاجر دمياط . وكان وهبه باشا حاضرا الحديث ، فقال ان هذا العمل سابق لاوانه . ثم رجعت مرة أخرى الى رشدى باشا أطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأن تنصب الخديو ملكا عليها ، ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال ، ورجوته باسم حزب الامة أن يعرض هذا على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر . وطلبت اليه ألا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين . وبعد يومين استدعانى ، وأخبرنى أن الخديو مسرور جدا من هــذه الفكرة . وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لان انجلترا لاتريد مضايقة تركيا ، وقال لى انه أخبر بها سعيد باشا ، فقال : « هذه هى الخيانة العظمى » .. فذهبت الى اللورد كتشنر وحادثته فى الأمر ، فقال لى :

« لقد بسطنا يدنا لتركيا ، فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر المانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير

الموقف كثيرا .. ومع هذا فانى لا أجد الوقت مناسبا لقبول فكرتك »

تاليف اول وفد مصرى

رجعت الى رشدى باشا بعد ذلك ، وكان قد قابل الخديو مرة ثانية ، فقال لى :

« ان الخديو يرى أن يؤلف وفد من عدلى باشا ، وسعد باشا ، وأنت للذهاب الى لوندره للسعى لتحقيق هذا الأمر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى . وعليه النفقات » ! ..

واجتمعنا فى بيت سعد زغلول باشا نحن الثلاثة لندبر الخطة ، واخذت انا انشىء حملة فى هذا المعنى تحت عنوان : « سياسة المنافع لا سياسة العواطف »

هذه الاحداث امتدت أسابيع ، فى أثنائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والاعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ، ويشترون المؤن والاسلحة ويرسلونها للجيش التركى بطرابلس

وكانت الصحف المصرية ـ عدا « الجريدة » ـ تشجع هذه الحركة ، وتنشر أخبارا عن هذه التبرعات تنبىء أن الامة كلها مع تركيا ، فتداولنا نحن الثلاثة ـ سعد ، وعدلى ، وأنا ـ فى هذا الموقف العسير ، لان الامة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لايمكن أن تريد الانفصال عنها . ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط فى الماء

استقالة سعد زغلول من الوزارة

فى ابريل سنة ١٩١٢ استقال سعد من وزارة العدل

التى خلفه عليها رشدى باشا فى وزارة محمد سعيد باشا . وقد وقفت الى جانبه فى هذه الاستقالة التى تسببت عن حادث ـ لاداعى لذكره ـ يهم عابدين وقصر الدوبارة على السواء . وكان الطرفان متبرمين بسعد لصراحته التى كان يبديها فى مجلس الوزراء ، وصلابته فى الحق والعدل ، وحرصه على أداء واجبه ، وأنا من الذين ينتصرون لاستقالة الوزراء والموظفين اذا لم يستطيعوا ان يؤدوا واجبهم ، لانى أعتقد أن الوظيفة مهما يكن نوعها ضريبة على الموظف ، لا منحة له . فاذا عجز بأى سبب عن أن يؤدى الى أمته أكثر مايستطيع اداءه من خدمة حقوقها وتحقيق المبادىء التى يعتقد صلاحها ، فالواجب عليه أن يستقيل ، وتكون استقالته مشرفة لشخصه ، مشرفة لقومه ، ودرسا نافعا للناس ، ومثلا صالحا للصدق والاخلاص فى خدمة المجموع . وليست الوظيفة لمصلحة الحاكم ، ولكنها لمصلحة المجموع . وان السلطة التى فى يد الموظف انما هى لمصلحة الامة لا لمصلحة شخصه ، ولا يجوز أن يكون منها لمصلحة شخصه شىء الا شعور الرضى ـ ذلك الشعور الذى يحسه الرجل عندما يقوم بالواجب عليه لقومه . فمادمنا نصدر عن هذه القاعدة ، فلا عجب ان نصبنا انفسنا انصارا لفكرة استقالة الوزير أو الموظف كلما وضعت العراقيل امام حريته فى العمل ، فأصبح يشعر بأنه لايؤدى للامة أكثر مايستطيع اداءه من الخدمة ، بل قد تطرق الغلو الى اعتقادنا هذا ، فجعلنا لانكره استقالة الرجل العامل ذى العقل الناضج والارادة القوية من خدمة الحكومة ولو لسبب شخصى لا علاقة له بالعمل ولا بالحكومة ، لاننا فى بلادنا لم تكن قد وصلنا بعد الى

الموازنة بين الامة والحكومة فى عدد الرجال الاكفاء المستعدين لان يبنوا بأيديهم مجد أمتهم
ليس هذا وحده مافسر انتصارى لاستقالة سعد زغلول فى ذلك الحين ، بل أضيف اليه انه استقال وترك الوزارة بين الثناء والاعجاب ، والقى درسا نافعا للحاكمين والمحكومين على السواء . فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الامة بأسرها واستحسانها . ولامعنى لاجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بكل ماعهدناه لوزير غيره عند تعيينه الا ليكون ناصرا للامة ، مدافعا عن الحق متشددا فيه

ممثل المتعلمين الاحرار

كان « سعد » قد دخل الوزارة ليمثل فيها طبقة المتعلمين الاحرار الذين ليس على عقولهم سلطان الا للحق ولا على قلوبهم الا حب الوطن ونفعه ، فحقق فى المعارف سلطة المصرى ، وملأ كرسى الوزير ، وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوى بين الموظفين الاجانب والوطنيين ، وحقق آمال الامة فى أكثر ماطلبت ، فجعل التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم هى لغة الامتحان ، وأعاد عهد البعثات ، وجعل للنظامات المدرسية قوانين لابد من عرضها على مجلس شورى القوانين الى غير ذلك من المشروعات التى أعادت الى المعارف عهد وزيرها المرحوم على مبارك باشا
وكان من أعمال سعد انشاء مدرسة المعلمين ، ومدرسة القضاء الشرعى التى وجد فى انشائها صعوبات جمة كانت محكا لشجاعته الادبية ، وقدرته الوزارية ودهائه السياسى ، فلما تولى وزارة الحقانية لم يفرط فى حقه

بصفته وزيرا ، ولم يكن فيها بأقل غيرة على اقامة العدل منه فى نظارة المعارف على نشر التعليم حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديو والانجليز به

وقد اتهم سعد فى استقالته بأنه قد نقصه الدهاء اللازم للوزير لارضاء السلطة . وهى تهمة عجيبة . على انه نجح كثيرا فى حمل السلطة على الرضى برأيه وتحقيق مشروعاته

ومهما قيل فى ذلك الزمان من أن الوكالة البريطانية كانت تعاضده ، فمن المحقق ان الرجل كان فى كل أعماله لايخالف اعتقاده ولم يداج فيها ، بل كان يدافع عن رأيه أمام السلطة الشرعية والسلطة الفعلية حتى انه لما اتفقا معا عليه لم يتحول عن موقفه ، وفضل الاستقالة المشرفة التى قال عنها بعضهم ان استقالته تعتبر استقالة للوزارة

○

وحدة مصر وسورية

فى نحو سنة ١٩١١ ظهرت لاول مرة بوادر مايسمونه « البنارابيزم » أو الجامعة العربية ، وفى هذا الحين وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان ، هما السيد شكرى الغسلى من دمشق ، والسيد ثابت من أعيان بيروت ، وكانا نائبين فى مجلس المبعوثان باستامبول . وكان الغرض الذى جاءا من أجله السعى لضم سورية الى مصر .. وقد لقيانى مرارا فيمن لقيا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأى . ولم أكن متفقا معهما فى هذا الرأى لا لتعذر هذا الطلب فحسب ، بل لانى لم أره فى مصلحة مصر . وأذكر أن السيد شكرى العسلى كان متحمسا لفكرته الى حد أنه كان يدافع عنها بصراحة غلبته على كل اعتبار حتى قال لنا أنا وعبد العزيز فهمى باشا ومحمود بك أبو النصر فى مادبة بمنزلى :

— مصر فيها مال وسورية فيها رجال ! ..

وذلك فى مقام التدليل على فائدة وحدة سورية ومصر . وقد انتهى الامر بأنهما لم ينجحا فى هذا المسعى

⊂⊃

وكنت منذ زمن طويل أنادى بأن مصر للمصريين ، وأن المصرى هو الذى لايعرف له وطنا آخر غير مصر . أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ، ويتخذ له وطنا آخر

على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة . وقد دعوت السوريين فى مصر الى أن يسجلوا أسماءهم فى المحافظة ليكونوا مصريين . وبعث الى شكور باشا مدير بلدية الاسكندرية ، وعبد الله صفير باشا مدير المطبوعات بالداخلية يعززان هذا الرأى . ولم أقصد السوريين فقط ، ولكنى كنت أريد أن يتحمل كل قاطن فى مصر من الواجبات مايتحمله المصريون لتحقيق القومية المصرية . فقد كان من السلف من يقول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويحب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الاقطار المفتوحة ليصل بذلك الى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة حتى لاتنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع الى الاستقلال بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لنفوذ الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لاالمهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من ان تنمحى جنسيتها ، ويفنى وجودها ، فان أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال

ولهذا أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء لانها لاتتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها ، فلم يبق الا أن يحل محلها المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود ، وهو مذهب الوطنية

لايفهم مما أقول أننى كنت أدعو الى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين ، بل على ضد ذلك كنت أدعو للجامعة المصرية .. دعوت الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر أن لايفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب الى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر ، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالبا خارج حدودها الى الاوطان التى ضنت عليهم بخيرها

ان مصريتنا تقضي علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا وأن نكرم أنفسنا ونكرم وطننا فلا ننتسب الى وطن غيره ، ونخصه بخيرنا ، والانتساب الى مصر شرف عظيم ، فقد ولدت التمدن مرتين ، ولها من الثروة الطبيعية والتاريخية مايكفل لها الرقى متى كرم أهلوها ، وعزت نفوسهم ، وكبرت أطماعهم ، فاستردوا شرفها وسموا بها الى مجد آبائهم الاولين

أول نقابة للصحافة

فى نحو سنة ١٩١٢ دعونا الى تأليف نقابة للصحافة المصرية . وقد استجاب الصحفيون على اختلاف الوانهم الى هذه الدعوة ، واجتمعت الجمعية العمومية . ثم ثم انتخبت مسيو كانيفيه صاحب جورنال « الريفورم » بالاسكندرية نقيبا ، وانتخبت الاستاذ فارس نمر وایای وكيلين . كما انتخبت كلا من جبرائيل تقلا صاحب « الاهرام » ، ومسيو فيزييه صاحب جورنال « لوكير » سكرتيرا . واذكر انى مثلت هذه النقابة أنا ومسيو فيزييه فى حفلة افتتاح معصرة كوم امبو . وقد خطب فى هذه الحفلة كل من يوسف قطاوى باشا ، وأحمد شفيق باشا . ولم تعمر هذه النقابة طويلا لان الحرب العالمية

الاولى أتت عليهـا ، ولكنها كانت أول محـاولة لنقابة الصحفيين فى مصر

فى انتخابات الجمعية التشريعية

فى سنة ١٩١٣ ألغى مجلس شـورى القوانين وحل محله نظام الجمعية التشريعية وكان لابد لى من الدخول فى عضويتها لازيد صوتا على أصوات حزبنا فى الجمعية ، فدخلت فى انتخاباتها وكان صديقى فتحى باشا زغلول يعلم أن الانجليز أوعزوا باسقاطى أنا وسعد زغلول باشا فى هذه الانتخابات ، فأشار على بألا أتقـدم اليها حتى لايذهب سعيى سدى ، فقابلت مستشار الداخلية مستر جراهام وسألته عما بلغنى فى ذلك ، فأكد لى أن الانتخابات ستكون حرة وان الحكومة ستكون على الحياد . ولشد ما كان عجبى حين وجدت على باب مركز السـنبلاوين عربة سـعيد باشا ذو الفقار وزير المالية الجـديد .. وعلمت وقتئـذ أنه لما عين وزيرا بعـد أن كان مديرا للدقهلية طلب اليه أن يدير هو الانتخابات دون المدير الجديد حافظ حسن باشا الذى كانت الحكومة تعلم أنه صديقى . وعلى هذا الوضع سـقطت فى الانتخابات . ولكن سعد باشا زغلول نجح بالقاهرة فىدائرتين ، وأرسل الى تلغرافا يقول لى فيه :

« لئن سقطت فى الانتخاب ، فلك عطف العقلاء »

وقد أشـيع ان الذى أسـقطنى هو دعوتى الى الديمقراطية التى كانت تؤول تأويلات بين الناخبين فيها خروج على الدين الاسلامى ، ولكنى لا أعرف شيئا عن هذه الاشاعة التى قيل انها شاعت بين الناخبين ، كما لا أعرف سببا لسـقوطى فى الانتخـابات الا تدخل الحكومة ، وعملها لاسقاطى

الصلح مع الخديو

فى أوائل سنة ١٩١٤ طلب الى محمد سعيد باشا مرة ، وسعد زغلول باشا مرة أخرى أن أطلب مقابلة الخديو عباس لانه يرغب فى لقائى ، فكانت اجابتى دائما : « اذا كان الخديو يريد أن يتفضل بلقائى فليدعنى هو الى ذلك »

وفى احدى التشريفات قال الخديو عباس لوالدى « أحب أن أراك ومعك لطفى بسراى القبة يوم السبت »

فاستجاب أبى الى هذه الدعوة وسر بها ، وطلب منى أن أصحبه الى سراى القبة ، فذهبت معه ، فأحسن الخديو استقبالنا . وتكلمنا يومئذ فى بعض الشئون العامة . وقال لى :

« أنا مسرور لحضورك . والاستاذ جرين كلمنى عنك كثيرا .. » ، والاستاذ جرين هو المحامى الذى قدم مذكرة ضد الخاصة الخديوية فى قضية شركة الجريدة

ثم تكلم الخديو عباس عن وزارة محمد سعيد باشا ، وكان برما بها ، ويريد تغييرها ، وسألنى عن رأيى فى الرجال الذين يصلحون لوزارة جديدة ، فذكرت له أسماء عدة منها سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعدلى ، وثروت

ولما انفض المجلس خرج معنا ليودعنا ،وهو يقول لى : « قد عرفت الطريق ، فتعال عندى كل يوم سبت »

فقلت له : « يامولاى ما شأن الكاتب والاتصال بالسلطات ؟! .. »

فقال : « اذن انت لاتريد أن تأتى عندى ! »

قلت : الواجب علي يامولاى أن أجيء كلما دعيت .. »

فدعا الخديو حافظ بك عوض الذى كان يعمل وقتئذ

سكرتيرا خاصا له وطلب منه أن يدعونى كل يوم جمعة ، لأحضر اليه يوم السبت . وكذلك كان

وفى يوم من أيام السبت عرضت عليه أن نحمل حملة على الانجليز نطالبهم فيها أن يســاعدونى على أن تكون جزيرة « طشيوز » باليونان تابعة لمصر كما كانت فى زمن اسماعيل، فانه كان يرســل اليها دائما قاضـيا مصريا وبوليسا مصريا لادارة الأمن . ثم تراخى الأمر بعـد ذلك الى أن صارت تابعة لتركيا . ثم أصبحت لليونان ، فوافق الخديو على هـذه الفكرة فطلبت اليه الاذن بأن اطلع على الفرمانات الخاصــة بها فى السراى ، فكلف شفيق باشا بأن يأمر بترجمة هذه الفرمانات الى اللغة العربية . فترجمت ، وبدأت فى « الجريدة » حملة على هـذا الوجه ، مؤداها أن الانجليز اذا لم يحمـونا من اليونان ، فممن يحموننا ؟ وماكدت أسير فى هذه الحملة حتى قال لى فى يوم سبت آخر :

ـ يخشى أن تقع « سالونيك » ومعها « طشيوز » فى حوزة البلغار . وعلى ذلك يكون من الاصلح أن نستبدل بها أطيانا فى الصلمان بالاناضول

وكان غرضه من ذلك أن يوسع بهذه الاطيان تفتيشه فى تلك البلاد ، فقلت له :

ـ يامولاى لست أدرى فى المسائل الاقتصادية شيئا يذكر ..

وطويت أوراقى وصرفت النظر عن « طشيوز »

بعد ذلك اعتزم الخديو عباس أن يســافر الى استامبول ، ورغبه فى زيارة مديريات الوجه البحرى قبل السفر . مظاهرة كان يريد بها اقنـــاع الانجليز بأن

البلاد تحبه وتتعلق به ، فدعانى اليه عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى فى ذلك الحين ، وقال لى :

ـ ان سمو الخديو يحب فى سفرته هذه أن يزور والدك فى البلد ، فهل لكم بيت فى السنبلاوين ؟

قلت : « نعم » ، قال : « اذن تستقبلونه هناك »

فقلت : « وهو كذلك »

وشكرت للخديو هذا العطف ودعوت له بطول البقاء ..

ثم قام الخديو بزيارة الوجه البحرى ، واستقبلناه بالسنبلاوين فى حفل من العمد والاعيان . وسر أبى سرورا عظيما بهذه الزيارة ، وصحبناه الى الاسكندرية حتى ركب البحر

**

الفصل العاشر

عرفت تولستوى
وفتحى زغلول

* تولستوى رجل الاشتراكية والسلام
* فتحى زغلول رجل الحرية والتطور

ليو تولستوى

فى نوفمبر سنة ١٩١٠ توفى رجل الانسانية والسلام ليو تولستوى . وكنت وقتئـــذ فى قريتى ، فبعثت الى الجريدة برأى فى هذا الرجل العظيم بمناسبة وفاته فى ذلك الحين فقلت :

أحاول أن أكتب كلمة عن تولســتوى حيث أنا الان فى قريتى ، تحيط بى أشباه المناظر التى كان يحبها تولستوى يحبهم ويتفطر قلبه اشفاقا عليهم رحمـــة بهم ان يقتربوا من المدائن فتحرقهم نار الشهوات ، وتلعب بقلوبهم البريئة شياطين الاطماع الخسيســـة ، فتغير مجـــرى فطرتهم الصالحة الى عادات البذخ والترف ، وتجرى ألسنتهم على الكذب وتسكن أمزجتهم الى رؤية الزور ، وســماع الهجر من القول والصبر على الباطل

أكتب عن هذا الرجل الكبير ، حيث أنا فيما كان يحبه ، رحمه الله من السكينة ، لا أسمع الا حفيف الهواء ، وصهيل الخيل ، وصياح الدجاج ، ونعيق الغراب ، وصــفير العصافير . فلا شك أنى فى اليق ظرف من الزمان والمكان

أحاول الكتابة عن تولستوى ، وان لم يكن تحت يدى ولا مؤلف واحد من مؤلفـــاته الكثيرة . وانى على ذلك لا أجدنى برثائه خليقا ، الا كما يرثى امرؤ هذه الارض الواسعة قد خلت من احد مصابيحها ذوات الضـــوء الساطع ، او كما يشفق أحد بنى آدم من فقد هاد من هداة

الفضيلة ، وواعظ من أكبر الواعظين

أشعر بأن مصيبة العالم فى هذا الرجل ليست كالمصائب التى تفجع لها القلوب ، وتألم لها الانفس بحزن حار ، يجرى الدموع ويسلم اللســـان لهذيان من فرط الجزع ، لا أشعر بذلك ، بل أشعر بأن المصيبة بفقد هذا الحكيم مصيبة كبيرة ، واقعة فى النفوس وقعا فاترا ، لا تدمع عينا ولا تخفق قلبا ، ولا تحرك ألما من آلام الاحزان ،كأنما هى تقع على العقول لا على القلوب

فأولى بوفاة تولستوى أن تشبــه بكسوف الشمس أو بخسوف القمـــر ، أو بأيةظاهرة من تلك الظواهـر الطبيعية ، التى اكثر ما تهتم لها عقولنا لتدبرها ، وتعرف آثارها فى الوجود ..

لم يكن هذا الرجل روسيا فقط ، بل كان انسانا قبل كل شيء ، يحب أمته ويحب اعداء أمته ، يحب الســلام على الدوام ، يحب أيام السلام وأيام الحرب على الســواء . يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه

ولم يكن كذلك مسيحيا محدودالمشاعر بحدود النصوص أو التقاليد ، بل كان مسيحيا لاحد لتسامحه ، يسع صدره الرحيب آراء موافقيه فى الدين ومخالفيه ، يرى فىالدين انه طهر للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب ، ويرى فى العمل به السعادة فى هذه الدار الدنيا والاخرة

فاذا كان تولستوى رجل روسيا وحدها ، بل رجــل العالم والسلام ، واذا كان تولستوى ليس مسيحيـــا محدودا بمذهب معين متعصبا له ، بل متسامحا يقبل دين الفضيلة حيثما وجد من غير تحرج بحدود مذهب غير مذهبه الواسع ، فأخلق بمصيبة تولستوى ان تكون كما قدمنا خسارة عالمية ، لا خسارة روسية ، أو خســارة مسيحية

ان الله يبعث الجيل بعد الجيل على هذه الكرة رجالا من الناس يؤتيهم طرفا من حكمته وقبسا من نور أسراره ينصرون الحق على الباطل ، ويشعرون بنور هديه فى الازمة المظلمة والمكان القفر ، يتبعون سنن الانبياء فى ارشاد الناس ، ويقفون نفوسهم وملكاتهم على بلوغ ما يريدون من خير للانسانية ، فاذا مات أحدهم كان موته خسارة تتأثر لها الحقائق العلمية ومكارم الاخلاق ، ولم يكن تولستوى الا أحد هؤلاء . فمن بعده للفقراء والمساكين يقف لهم فى وجه الظلم والبؤس والنفى والعقاب على غير جريرة · ومن للدين ينصره بشجاعة فائقة لا تقف أمامها انتقادات المنتقدين ، ورمى الرامين له بالزندقة والخروج عن القصد ، بل من للمساواة والمعاملة بالعدل ينصرها من تعدى الطبقات القوية عليها فى كل مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . بل من يهدى الرجال الى العمل الصالح ، وقد مات الرجل

أشتغل تولستوى بالفلسفة ، فلم ير رأى النظريين بجملته ، ولا رأى الماديين أو الوضعيين ، كان عقله الواسع يأبى ، دائما ، وفى كل شيء ، أن يتقيد بالقيود المذهبية التى يستحيل أن تخلو من التعسف

اشتغل بالسياسة فكان يكره الاستبداد ، وينفر منه، ويغلب ارادة الجماعة على ارادة الفرد ، يقول بسلطة الامة ، ويعمل بنفسه وبأنصاره وتلاميذه (وهم أكثر من الكثير) على تحقيقها وقد تحققت فى بلاده أو كاد يتم تحققها بالفعل

اشتغل علما وعملا بالاقتصاد ، فكان مذهبه اجتماعيا قريبا جدا من الاشتراكية أو كان هى بعينها . وهو وان كان لم ينجح فى تجربة ، الا ان ذلك ليدل كثيرا على عقله

المرتب الذى ظهرت آثاره متجانسة فى جميع الفـــروع المختلفة التى اشتغل بها

اشتغل بالدين ، فنفى منه كثيرا جدا من التقاليـــد الكنائسية المادية على الاخص ، واتخذ له انجيلا خاصا به اتبعه كثيرون فى تعاليمه

وقد كان تولستوى على ذلك كله يجب أن يحسب فى كتاب الحقيقة (كتاب الواقع) لا كتـاب الخيال (الذين يكتبون عن الانسان باعتبار ما يجب أن يكون لا باعتبار ما هو فى الواقع) . فانى أذكر أن قصته الموســـومة (بالبعث) لم يكن فيها عن الشهوات الا حقائق عريانة ، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبـــل فى نفس بطـل الرواية ، ثم اظهر فيها اغلاط العدل الانسانى على صورتها التى كانت قد فارقته مؤقتا عنـــد استحكام الشـــهوة . وذلك ما نجده عاما فى الانسان كل يوم ، ثم رجـــع الى تأثير الوسط ، وتغلب ميول النساء مما لا يشذ كثيرا عن الامثلة اليومية التى يجدها مخالطهن ، ولو كان غير عمار ذى كناز الذى قال فيهن :

أراح الله عمـــارا ... من الدنيا ومن هن
قريبان بعيـــدان ... فلا كانا ولا كـــن
يمنين الاباطيـــل ... ويجحدن الذى قلن

كذلك كان وصفه لحال الزوجية فى قصصه «لاسونانت اكوتزر» غـير ناب عن الواقع ، وأن وصفه فيه غـير عام فى العـــائلات مع السرور . ولقـد سـبب له هـــذا الكتاب امتعاض السيدات منه ، واتهامهن له فيما كتب ، وأرسلن له خطابات الانتقاد والشتم . وعندنا انه فى هذا الكتاب لم يكن خياليا ، ولا كاتب واقع الا كما كان (اميل زولا) فى كتاب : (الاسوموار) فان عيشة الناس ليست

كلها سكرا ، وليست كل الابنية ، ولا غالبها فى المدائن حانات وخمارات . كما أن جميع النساء لسن على تلك الحال التى وصفها . ولا ريب فى أن تولستوى أراد أن يبين عيوب التربية الحاضرة وقتئذ ، وانمـــاطها المتخذة لتعليم البنين والبنات ، فكتب هذا الكتاب ليجعل الناس يلمسون بالحس نقص تلك التربية ، ليلفتهم الى التربية التى لها قاعدة من الاعتقاد الدينى ترتكز عليهـــا لتأتى بنتائج السعادة المنشودة فى العائلة . اقول ان هذا النظر لا يخرج تولستوى من كتاب الواقع ، كذلك يؤكد زعمنا سؤاله (ما العمل ؟) و (الذى يجب عمله) ، وان كان له ما يصح أن يجعله من كتاب الخيال كبعض قطـــع (الايمبتاسيون) و (حرب وسلام) . فكذلك لا يكـون الا لأن علاة عدم التقيد بالمذاهب الضـيقة التى اتخذها شعارا له قد غلبت عليه . وليس لنـا أن ندخل فى بحث موضوعاته الدينية ، وتعاليمه اللاهوتية ، بل نترك الحكم على ذلك لغيرنا

فتحى زغلول

ارى من الوفاء لمبـــادىء الحـرية وخادميها أن اذكر صديقا عظيما عمل لنشر هذه المبادىء ، هو المرحوم احمد فتحى زغلول باشا ، فقد نظر نظرة صـــادقة الى حال الامة المصرية وحكومتها ، فرأى أنها أحوج ما تكـون الى معرفة المثل الاعلى الذى تبغى الوصول اليه من نظمهـــا السياسية والاجتماعية حتى تتحد اطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة .. ورأى فوق ذلك ان أول خطـوة يخطوها المصلحون العلماء هى نقل العلم الى أوطانهـــم بالترجمة .. ان هذه الطريقة كانت هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان

هذه النظرية الصادقة كانت رائد فتحى باشا فى خدمته لوطنه منذ خرج من المدرسة الى أن مات ، فانه فى سـنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك « أصـــــول الشرائع » لبنتام . و « خواطر وسوانح فى الاســلام » للكونت هنرى دى كلتزى . و « سر تقدم الانجليـــــــز السكسون » لريمون ديمولان . و « روح الاجتماع » و « سر تطور الامم » لجوستاف لوبون ، و « جوامع الكلم » لجوستاف لوبون ، وقد نشرت هذه الكتب كلها .. وله فوق ذلك كتـــاب « بورجار » فى الاقتصـــاد الســياسى ، و « تمدن العرب » لجوسـتاف لوبون ، و « جمهـورية أفلاطون » و « الفرد ضد المملكة » لسبنسر ..

أما مؤلفاته ، فهى كتاب المحاماة ، ورسالة فى التزوير، وشرح القانون المدنى .. وقد ألف قبيل وفاته كتابا فى « التربية العامة »

نابغة فى الترجمة

عرفت مترجماته وقرأت المنشور منها ، وتصفحت غير المنشور ، وأستطيع أن أقول ، من غير تردد ، أن فتحى زغلول كما كان نابغة فى الفقه ،كان نابغة فى الترجمة يمسك الكتاب يقرؤه أولا ، ثم يدخلّ بنظره الحاد فى طيات نفس الكاتب ، فيظهر أسرارها بقلمه العربى المبين . ومن التراجم ما تترجم الالفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته ، فلا يكون لها تأثير . أما مترجمات فتحى زغلول ، فانك تقرأ فيها المعانى والاغراض كانك تقرأ كاتبها من غير فرق

دخلت عليه فى بيته يومابمصر الجديدة فى يوم حر شديد ، فألفيته يضع شرح القانون المدنى ، والى جانبه « سر تطور الامم » وقد فرغ من ترجمته فى بضعة اسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه ، فأشفقت عليه من هذا الجهد الشاق فىذلك الجو المحرق، على ما نعهده فيه من رقة فى الصحة وعمل دائم طول سنة العمل ، وقلت له : « أبهذا ترتاض ياسيدى الباشا ؟ » فأجاب : « نعم هذه هى رياضتى ! .. »

فعجبت لجلده وصبره وتفانيه فى خدمة العلم وخدمة بلاده

شخصية ممتازة

كان لفتحى باشا شخصية ممتازة فى طريقة اسلوبه البيانى . ولم يكن يترجم ليترجم ، ولا طلبا للشهرةوالمال من وراء ذلك . وكان حسبه شهرة مناصبه العالية

وكفاءته التى ما كانت يوما موضعا للشك من أحد ، سواء فى ذلك أصدقاؤه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه. ولكننا اذا أجملنا مترجماته دلنا مجموعها على انه كان له غرض ثابت يرمى اليه من وراء نشر هذه الكتب

غرضه نشر مبادىء الحرية : حرية الفرد ، وحرية الامة . وتنبيه اطماع الافراد والامة جميعا الى اتخاذ مثل اعلى قبلة لهم فى آمالهم الوطنية

منذ سنة ١٨٨٢ كان يرى الامة تتقلب فى أحوال متناقضة مبهمة ، فكانت تسوءه هذه الاحوال ، ويود لو ان الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج .. كان يود لوتدرك الامة أن ابهام الغرض وعدم ادراكه بوضوح يجعله مستحيل المنال ، لذلك اراد أن يقدم للجمهور « العقد الاجتماعى » لروسو حتى يتبين الجمهور حق الامة وما يجب أن يكون لها من السلطان

وللاسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغا كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصول الحقوق والواجبات ، حتى جاء الزمن الاخير فظهر الشعور الوطنى بمظهر جميل ، ولكنه لا يزال فى مقاصده بعض اللبس حتى فيما هو مكتوب من المبادىء فى الصحف، وما الصحف الا ترجمان الرأى العام

ايمانه بالاشتراكية الديمقراطية

ولعل فتحى باشا أمام هذه المشاهد أشفق على حرية الافراد ، وتربية الامة من الميل الظاهر الى ما يشبه الاشتراكية ، فان الناس لم يقتصروا فى طلبهم على حقوق الافراد من الحرية وحق الشعب من السلطة ، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شىء . ومهما

كان في أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمنى الا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هى كل شىء والفرد لا شىء !

الاشتراكية قد تكون معقولة اذا كان للشعب شأن فى تنصيب الحكومة ، والا فهى اشتراكية معكوسة النتائج، فأخذ فتحى زغلول عن بعد يهدى الافـراد الى وجوب الاستمساك بشخصيتهم ، ويبين لهم أن التربيـــة الشخصية هى التى كانت سر تقدم الانجليز السكسون ، فطلب الى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء ، والا يفنـــوا شخصيتهم ، فيفنى وجودهم ، واستطرادا فى هذا النظر تصدى لترجمة « الفرد ضد الامة » و « روح الاجتماع »، و «سر تطور الامم» ـ كل ذلك لينشر فى الجمهور الاسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حالهم على هذه الاصول، فينتفعوا بتجارب الأمم

ان توفيق فتحى باشا فى اختيار مترجماته يدل فوق ما قدمت على انه كان يعتنق مذهب الاشـــــتراكيين الديمقراطيين ، سواء أكان ذلك فى التربية والتعليم أم فى الاصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضا

ولو شئنا أن عقائده من منتجاته وأحاديثه لضاق بنا المقام ، ولكنى أكتفى بالاشارة الى أن بين اختياره لتلك المؤلفات ، وبين مذهبه الديمقراطى الاشتراكى فى محاولة الاصلاح الاجتماعى والسياسى نسبا متصلا جد الاتصال

رجل تطور

من ذلك نعلم أن فتحى زغلول كان رجل تقدم تطورى. فكما أنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن فى ذاته ، ولكنه القانون الذى يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى أن خير المبادىء الاجتماعية والسياسية

ما كان بينه وبين طبائع الشعب وعاداته نسب يكمل ما فيها من نقص ، ويقوم ما بها من اعوجاج

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة .. فاذا لم يكن نشرها يتفق مع مركزه فى الحكومة ، فقد نشرها بالترجمة ليرضى دواعى ضميره ، وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتةمع معرفة الحقوق والواجبات ، فليس فتحى على ذلك من أصحاب المناصب ، بل هو من أرباب المذاهب

ومن كان كذلك من شأنه أن يكون شقيا معذبا ، يكاد لا يكون له من راحته ووقته نصيب ، فهو مقسم بين الاعمال الرسمية الشاقة ، وبين خدمة العلم ، يعمل فى التأليف والترجمة شطرا من الليل ، واحيانا طول الليل ومدة العطلة ، فأذا لامه فى ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة الفيلسوف لا يبالى مات اليوم او مات غدا

نعم كان العالم المفكر فتحى زغلول يرى أن الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح ، لا بعدد السنين والايام

مثال الموظف المتفانى

وقد كان فتحى زغلول أصغر أنجال المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان أبيانة . ولد فى تلك القرية فى ربيع الاول سنة ١٢٧٩ هـ . ومات أبوه اذ كان رضيعا ، وكان شقيقه سعد زغلول فطيما . خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى احدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بالفربية . وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاوز عمرها العشرين ، فقامت على ولديها ، ووقفت نفسهاعلى تربيتهما تحت اشراف أخيهما الكبير لابيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الاعيان

تعلم « فتح الله » الصغير فى كتاب البلد ، ثم فى مدرسة رشيد ، ثم فى المدرسة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الالسن. فاتفق أن زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فاعجب بذكاء الشاب « فتح الله » واعطاه اسم أحمد ، ونحت من فتح الله « فتحى » واصدر امرا رسميا الى المدرسة بتسميته احمد فتحى ، وبان يرد اليه مادفع من المصاريف المدرسية ، وبأن يتعلم بالمجان ، فلما كانت سنة ١٨٨٤ ارسلته نظارة المعارف الى فرنسا لدرس الحقوق ، فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . فوظف بقلم قضايا الحكومة ، ثم رئيسا لنيابة أسيوط ، ثم رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم مفتشا بلجنة المراقبة فرئيسا لمحكمة الزقازيق ، ثم رئيسا لمحكمة مصر ، ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، وهى الوظيفة الاخيرة التى مات وهو قائم بها

كان فتحى مثال الموظف المتفانى فى اداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره احيانا . ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجما امينا ومؤلفا كبيرا

ان شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الاخلاص — تلك الصفات التى ظهرت آثارها على فتحى باشا منذ شبابه الغض ، راجع معظمها الى التأثير الوراثى من أبويه ، وعلى الاخص والدته التى افاضت عليه من صفاتها بما يفيض الاصل وبما غرست من المبادىء الصالحة مما جعل لفتحى شخصية ممتازة منذ صباه

ولا عجب فأمهاتنا نحن القرويين منهن مع بساطة فى المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف على جانب عظيم من الذكاء الفطرى ورفعة الاخلاق ، وعزة النفس ، والذوق السليم فى الحكم ، والطيبة والتقوى فى المعاملات . ينقلن

هذهالصفات لابنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثى، فتكون لهم راس مال فى الحياة العملية . ولولا هذه الصـــفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق..

فللأمهات القرويات ان يقبلن شكر الجيـــل الحاضر ، وعلينا أن نعترف علنا بما للامهات من الاهمية العظمى فى توريث البنين والقيام على تربيتهم الاولى

وامامنا المثل الحسى : ان هذه الوالدة القروية ينســب اليها الفضل الاكبر فى انها اخرجت لمصر نابغتين عظيمين : سعد زغلول وشقيقه فتحى زغلول

الفصل الحادى عشر

موقفنا من الحرب
سنة ١٩١٤

* معظم النار من مستصغر الشرر
* قلت لرشدى : اتدخل الحرب مجانا يا باشا !!.
* كسرت قلمى واعتزلت السياسة والصحافة
* لماذا ترجمت مؤلفات ارسطو ؟
* الفنا اول مجمع للغة العربية ... ثم فشل

معظم النار من مستصغر الشرر

وقع ما كان يخشاه العالم بأسره ، وعم الخطب سنة ١٩١٤ ولم يبق بعد سبيل الى السلام ، ولم يكن لينتظر ان الخلاف المحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل الى النتيجة التى وصل اليها . وهنا نورد المثل المشهور :
« معظم النار من مستصغر الشرر »

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية ، والوساطات الملوكية والامبراطورية عن تأييد السلم وحقن الدماء ، وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى اوربا اذ نفخ فى صوره ففزعت لدعوته الملايين ، انقلبوا عن صورهم المدنية ، فاصموا آذانهم عن دعوة الاخاء الانسانى ، واستدبروا نهائيا مبادىء المحبة والغفران والسلام ، وغشى الغضب ابصارهم ، فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة الكبرى التى يجنيها المحاربون من وراء الحرب سواء فيهم الغالب والمغلوب . واستهانوا بالاضرار التى تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة ، التى ليس فيها من البركة شىء

تلك حرب لم تكن كحروب القرون الاولى ، فان المدنية الحاضرة قد جعلت الكرة الارضية اشبه بالوطن الواحد فى المنافع الاقتصادية التى هى اساس العمران ، بل علة الحياة ، اجزاؤه متضامنة فى الخير والشر . اقفلت اسواق اوربا وميزان الحركة الاقتصادية العامة معلق بين أصابعها ، فأخلت بالموازنة فى كل شىء حتى فى اسعار الاقوات فى كل

البلاد ، واصبحنا فى مصر ونحن بمركزنا الاستثنائى بعيدين عن هذه الحركة الحربية نشعر من اول يوم بالرجات الشديدة التى انتابت سوقنا المالية ، وعلى هذا القياس كل انحاء الكرة الارضية . افلا يعلم الذين يعلنون الحروب بكلمة من أفواههم ، مقدار المسئولية التى يحملونها بهذه الكلمة الكبرى التى تسفك دماء الملايين من الابرياء بالمعنى الصحيح الذين يتمثلون بقول القائل :

لم أكن من جناتها علم الله
وانى لحرها اليوم صالى

يقاد احدهم من الدار الى النار ، لا دفاعا عن وطن مهدد ، ولكن ارضاء لشهوات العظماء ، ارضاء لرؤساء الاحزاب ، ارضاء لكلمات ضخمة مجوفة ترن رنين تمثال آمون وليس فى بطنها من الحقيقة شيء ..رحم الله « جوريس » اول قتيل لهذه الحرب ، واول ضحية من ضحاياها الذاهبة فى سبيل الحق والسلام

قلت لرشدى

هذا وقد كان لمصر وقتئذ مصــالح يجب ان نرعاها ، وكانت الوزارة الرشدية بالاسكندرية ، فاتصلت برئيسها صديقى المرحوم حسين رشدى باشا عن طريق التليفون، وما كدت اخاطبه فى امر عادى حتى قال لى :

ـ دع عنك هذا ، فان انجلترا اعلنت اليوم الحرب على المانيا ..

ودعانى للقائه فى اليوم التالى ببيته بالقاهرة

وذهبت للقــائه ، فوجدت معه عدلى يكن باشا وزير الخارجية وهما يحلان تلغرافا بالشفرة من زميلهما محمد محب باشا ، وكان وقتئذ بصحبة الخديو عبــاس حلمى باستامبول ، فقال لى رشدى باشا :

ان انجلترا قد دخلت الحرب ، وقد كتبنا هذا باعلان الاحكام العرفية فى البلاد

وسلمنى اعلانا ، فقلت له :

ـ اتدخل الحرب مجانا يا باشا .. ؟ !

قال :

ـ بل احترزنا مما تخاف ، بأن قلنا « نظرا للاحتلال الفعلى لانجلترا فى مصر »

فقلت له :

ـ اخشى ان يقول الناس ان هذه سذاجة سياسية . فاذا كانت انجلترا تريد ان تجرنا معها الى هذه الحرب ،

فلتعترف لنا أولا بالاستقلال ..!

قال رشدى :

ـ لم يفت وقت ذلك .. !

واتفقنا نحن الثلاثة على السعى لتعترف انجلترا باستقلالنا ، ونكفل لها مصالحها الى حد ان نعاونها بدخولنا معها الحرب اذا كان هذا ضروريا

وقد كان اكثر رجال الوكالة البريطانية وقتئذ فى اوربا بالاجازة . ثم كان « سير ريجنلد ونجت » أول من حضر منهم ، فكلمه رشدى باشا فى ذلك . وصارحه بأن مصر مستعدة لمناصرة بريطانيا العظمى بشرط ان تعترف باستقلالنا ، فارتاع « ونجت » لهذه الفكرة ووعد بأن يعرض الامر على حكومته . ثم جاء بعد ذلك مستشار الداخلية « سير جراهام » فلقيته وقلت له :

ـ ان مركزنا الان دقيق ، فنحن تابعون لتركيا ، وهى ستدخل الحرب مع المانيا وانتم محتلون بلدنا الذى اعلنت حكومته الحكم العرفى تضامنا معكم ، فلابد لنا من تنظيم هذه الحالة .. ولست أرى طريقا لذلك الا ان نعلن استقلالنا وننصب الخديو ملكا علينا ، وأنتم تعترفون بذلك

فقال : تركيا لن تدخل الحرب ، وعندنا على ذلك ضمانات

قلت : لم يكن دخول تركيا الحرب راجحا ، أفلا يكون محتملا .؟

قال : كل شيء محتمل ..!

قلت : اذن ماذا يكون ؟!..

فلما الححت عليه فى الاستدلال على ضرورة دخول تركيا الحرب وسوء مركزنا فى ذلك الوقت ، قال :

ـ يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون انفسكم ..

فحين ظهور اول طربوش تركى من القنال تتركوننا وتجرون وراءه

وانقطع الحديث عند ذلك . فاخبرت رشدى باشا بما حدث . فقال لى انه كلمه كذلك فلم ينل منه طائلا !

وحدث ان دعا رشدى باشا سير « ستورس » السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية ليتغدى معه بالكونتننتال . وعلم بذلك محمد محمود باشا . فدعانى ان أتغدى معهم الى جانبهم ، كى نعلم بعد الغداء من رشدى باشا ماذا دار بينهما . ولما انتهينا قال لنا رشدى باشا :

ــ ان ستورس يؤيد فكرتنا كالسير ريجنلد ونجت ، ووعدنى بانه سيخابر اباه العضو فى البرلمان البريطانى ليثير هذه المسألة عند الحكومة البريطانية

كسرت قلمى

وكنت ، وقتئذ ، اتردد على عدلى باشا لأعرف الى أى حد وصلت مسألتنا ، وذات يوم الفيت به فوجدته متشائما ، وبادرنى بقوله :

ــ ليس عندى امل فى نجاحنا ..!

فخرجت من عنده مكتئبا كاسف البال ، وزارنى بعد ايام نجيب باشا غالى وكيل الخارجية فى ذلك الحين ، فسألنى قائلا :

ــ ما هو الأمر الذى تتردد من اجله على عدلى باشا ؟..

فافضيت له بما عندى ، وقلت :

« ان الامر قد انتهى بالفشل ، ولهذا سأكسر قلمى ، واذهب الى بلدى ، واعتزل السياسة »

وفى اليوم التالى كلمنى ستورس بالتليفون ، وقال لى :

ــ لا تيأس ..!

ثم كلمنى بعد دقائق نجيب غالى باشا يدعونى الى العشاء عنده انا وستورس ــ وكان اللورد كتشنر قد عين وزيرا ــ فقلت لنجيب باشا :

ــ انى اقبل الدعوة بشرط ان يحضر معنا عدلى باشا

فأجابنى الى ذلك . واجتمعنا نحن الاربعة فى بيت نجيب باشا وحدثنا ستورس حتى ظننا ان النجاح فى متناول يدنا . فوضعنا فى بيت نجيب باشا صورة المعاهدة

بيننا وبين بريطانيا العظمى تتضمن اعترافها باستقلالنا واعترافنا بمصالحها فى مصر وفى قنال السويس

كل ذلك فى شهر اغسطس سنة ١٩١٤ وكان الامل يحدونا جميعا

ذهبت بعد ايام قلائل الى عدلى باشا بديوان الخارجية فوجدته قد يئس نهائيا من تحقيق مطلبنا ، فخرجت من عنده وانا مصمم على اعتزال السياسة ، ثم قدمت استقالتى من رئاسة « الجريدة » لرئيسها محمود سليمان باشا ، وسافرت الى بلدتى « برقين » . وكان هذا آخر عهدى بالعمل الصحفى

عدت موظفـــا فى الحكومة

ما كادت تمضي على اقامتى فى برقين مدة طويلة حتى عزل الخديو عباس ، واعلنت الحماية على مصر ، ونصب الامير حسين كامل سلطانا عليها

وشاع بعد ذلك فى البيئات السياسية فى مصر ان تركيا حكمت بالاعدام على السلطان حسين واعضاء وزارة رشدى باشا ، باعتبار انهم قبلوا الحماية ، وعلى أنا أيضا باعتبار انى اثرت حركة سنة ١٩١١ ضد الاتراك

وفى سنة ١٩١٥ كنت بالقاهرة ، فجاءنى ابى من «برقين» مذعورا وهو يقول انه قد اشيع عندنا ان سعد زغلول باشا قبض عليه ، فخشى ان يكون قد قبض على أيضا ثم ذهبت معه الى بيت على شعراوى باشا ، فقال لى شعراوى باشا : « ان ستورس سألنى عنك ، وسأل هل جففت دموعك من يوم اعلان الحماية على مصر ام لا ؟ » . ثم قال لى : « ان السلطان حسين يرغب فى ان تدخل وظائف الحكومة »

كل هذه الظروف جعلت ابى يستحثنى على ان اقبل الدخول فى الحكومة حتى لا يقبض الانجليز على . فقبلت ذلك ارضاء لوالدى رحمه الله . وعينت رئيسا لنيابة بنى سويف ليمكن ترشيحى قاضيا بالاستئناف . ولم البث فى بنى سويف غير اشهر ، وارسل الى عدلى باشا بأن احضر الى الاسكندرية ، ولما حضرت اخبرنى ان السلطان حسين مصمم على ان اكون مديرا لدار الكتب المصرية خلفا للدكتور شادة المدير الالمانى ، فقبلت ذلك

لماذا ترجمت ارسطو ؟

نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية. وقد لفت نظرى فى ارسطو انه اول من ابتدع علم المنطق، واكبر مؤلف له اثر خالد فى العلوم والاداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض اصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الاوربية ؛ فقد عمد رجال هـــذه النهضة الى درس فلسفة ارسطو على نصوصها الاصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى اخرج كثـــيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة

ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة ارسطو، فلا جرم ان آراءه ومذهبه اشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الاقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء ان ينتج فى النهضـــة الشرقية مثل ما انتج فى النهضة الغربية

وفى الحق ان ارسطو لم يكن كغيره معلما فى نوع خاص من العلوم دون سواه ؛ بل هو معلم فى الفلسفة . معلم فى السياسة والاجتماع ؛ فهو كما لقبه العرب بحق « المعلم الاول » على الاطلاق ؛ وكما وصفه دانتى فى جحيمـــه « معلم الذين يعلمون »

وقد ترجمت فى سنة ١٩٢٤ عنه « كتاب الاخلاق ». وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة . بل ان جانبا

كبيرا منه يمهد لموضوع كتاب السياسة ، فاردت ان اترجمه ليستفيد منه قراء العربية

اما القواعد التى وضعها ارسطو لعلم السياسة فما زالت هى القواعد السائدة بين الساسة ، وهى القواعد التى يدرسها الان طلبة العلوم السياسية فى الجامعات ونحن نسمع الان كلمات الاتوقراطية . والدمقراطية ، والدكتاتورية. وهى كلها من تعبيرات ارسطور وابتداعه

وقد قال اوغست كونت : « الواجب على ان انوه باسم ارسطو العظيم ، فان سياسته الخالدة هى بلا شك احدى النتائج الباهرة للزمن القديم . على انها الى هذا الوقت هى المنوال الذى نسجت عليه اكثر الأعمال التى جاءت بعدها فى هذا الموضوع »

والسياسة عند ارسطو هى اشرف العلوم ، لانه يعرفها بانها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع الى السياسة سائر العلوم ، او كما قال ارسطو ان السياسة بين ما هى العلوم الضرورية لحياة الممالك ، وما هى العلوم التى يجب أن يتعلمها السكان . والى اى حد ينبغى ان يعلموها

اول مجمع للغة العربية

فى نحو سنة ١٩١٦ دعانى المرحوم اسماعيل عاصم المحامى مع عدلى باشا ورشدى باشا والاستاذ يعقوب صروف وآخرين فى بيته وتحدثنا عنده فى ضرورة ايجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعا لوزارة المعارف . ولكنها تأويه فى دار الكتب المصرية . وتمده بمساعدة عمالها وموظفيها فى اعماله الكتابية . ودعوت حفنى بك ناصف

وعاطف باشا بركات ، ووضعنا قانونا للمجمع ، والفناه برياسة الشيخ محمد ابى الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الازهر ، وكنت انا سكرتير المجمع ، واذكر من اعضائه الشيخ محمد بخيت ، والشيخ عبد الرحمن قراعه، وعاطف باشا بركات ، والاستاذ يعقوب صروف ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ الاسكندرى وحلمى عيسى باشا .. ومن الطف ما اذكره عن هذا المجمع اننا مكثنا سنة كاملة نتناقش فى جواز التعريب !!

وقد انطوى هذا المجمع ولم يعمر طويلا

الفصل الثانى عشر

●

فى ثورة سنة ١٩١٩

- لماذا طلبنا الاستقلال التام ؟
- الاصدقاء الخمسة : سعد زغلول ، عبد العزيز فهمي ، علي شعراوى ، محمد محمود ، احمد لطفى السيد
- ويلسون يوافق على الحماية !

لماذا طلبنا الاستقلال التام

فى سنة ١٩١٩ ، نهضنا نطالب بالاستقلال التام ــ وقبل ذلك بزمن بعيد طلبناه ودعونا اليه ــ طلبناه على طرق متنوعة ، وبصنوف مختلفة . طلبناه من فرنسا ، ومن انجلترا ، ومن السلطة الشرعية ؛ طلبناه بأقلام الكتاب ، وبالسنة الزعماء

طلبنا الاستقلال التام ، لأن الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا . ولو كنا نعيش بالخبز والماء ، لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ، ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن اجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة ، بل ارضاء العقول والقلوب .. وعقولنا وقلوبنا لا ترضى الا بالحرية ..

انا اذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئا كثيرا .. انما نطلب الا نموت . ولا يوجد مخلوق اقنع من الذى لايطلب الا الحياة ووسائل الحياة . كما انه لا احد اقل كرما من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة

لست اعجب من الذى يستهين بحياة الرجل ، فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى اعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالانسان فيريد له الحياة شبعان ريان معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله وبين الاشياء والمعانى

بحجاب فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها ، فلا تتحرك بل تموت

أعجب من الذى يظن الحياة شيئا والحرية شيئا آخر ، ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية ، هى المقوم الاول للحياة ، ولا حياة الا بالحرية

أجل ان المرء يحفظ حرية الفكر ، وحرية المشاعر ، أى يحفظ حرية الطبيعة حتى فى غيابه السجن ، يحفظها فى كل حال هو عليها مادامت روحه فى جسده . انه خلق حرا .. حر الارادة . حر الاختيار بين الفعل والترك ، حرا فى كل شىء حتى فى ان يعيش وفى ان يموت متى قدر له

لا فائدة من حرية معطلة

ان هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها اذا تعطلت من آثارها ، فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة .. كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها ، اى فقدوا بذلك الحرية المدنية

لا اريد بذلك ان اتصدى للتعريفات الاصطلاحية لانواع الحرية . ولكن جرنا اليه التدليل على ان الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة . وان الحرية الطبيعية اللازمة للانسان لايصح ان تسمى حرية الا اذا كان ميسرا له استعمالها . رأيت ان المرء يرى الطريق بعينيه المكتوفتين . لكن العين المعصوبة . واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة .. انما يكون المرء حرا بمقدار مالديه من وسائل استعمال هذه الحرية . وانما يكون حيا بمقدار ماحاز من الاستمتاع بالحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت . لان الحرية هى معنى الحياة

طبعنا على حب الكمال

طبعنا على حب الكمال فى حياتنا ومعاداة كل العوارض التى تعرض لنا فى طريق المثل الاعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها . ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه .. وسواء أكان هذا الشوق الطبيعي الى حيـاة الحرية مصدر سعادة أم مصدر شقـاء ، فانه على كل حال نار تتأجج بين ضلوع الحى لا تبرد أو تصل به الى المرغوب . أجل أن المثل الأعلى ليس نقطة ثابتة ، ولا غرضا محدود المسافة يمكن بلوغه .. بل كلما بلغناه أنتقل شبحه أمامنا الى نقطة أخرى على بعد مرمى النظر لسـنا بالغيه ولا منصرفين عن التشبث بتركه ، بل تسـوقنا اليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها .. ولو كلفنا أن نركب متن التعسف !!

ولهذا يستغلق علينا فهم الأباطيل القديمة التى كانت الغطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا فى هاوية التناقض

يقولون أن بعض الناس خلق للسيادة أبدا ، وبعضهم خلق للعبودية أبدا . ولانزال نرى هذا خطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين على صورة أقل شناعة ، وبعبـارة أكثر ائتلافا مع مدنيتنا الحديثة .. يضعون أصابعهـم فى أعينهم ، اذ تكون النتيجـة المنطقية النهائية لهـذه المقدمات الصادقة هى هذه الجزئية : « بعض الانسـان لا انسان »

كذبت فلسفتهم

كذبت فلسفتهم ، وصدق الذى يشعـر به كل انسان منا فى نفسه من الميل الى الرقى فى كل شىء ، والى الحرية

قبل كل شيء . صدق هذا الاثر الذى نجـــده فى طليق الأسير أو السجين يوم اطلاقه ، وفى محـــاولة المعقول أن ينشط من عقاله . صدق ذلك الألم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته عن التصريح بها ، فتظل تجول فى نفسه ، ويغلى فى صدره حب ابدائهـــا ، ويقلق ذلك خاطره ، ويكد ضميره ، ويحتــــوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت فى ارضاء هـــذا الحب على الحياة فى كتمانه . وكم من عالم استحب الموت على الحياة فى سبيل حبه لحريته العلمية .. فمنهم من قتل ، ومنهم من أحرق ، ومنهـــم من حبس أو عذب . وجلهم من تلك الأمم التى يقولون انها خلقت لغير السيادة . فاذا وجدت عبداً لم يؤثر الحرية على العبودية ، ولم يطب نفســا بالعتق من الرق ، فذلك مثل من الأمثلة النادرة فى بنى الانســان ، وليس قاعدة يصح الأخذ بها

ان الـــذى يراجع المـــاضى لا يجـــد أمة من الامم المخلوقة للعبودية — كما يزعمون — الا قاتلت عن حريتها . واذا كان أصدق المعلومات هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة ، فالانسان — على الرغم من فلسفة المستعمرين — حر بطبعه ميال الى الحرية ، ميـــال الى الارتقاء فيها الى المثل الاعلى ، وفى سهولة الوسائل الموصلة اليه

الحرية طبيعية

الحرية طبيعية وميل الناس الى تحصـــيلها طبيعى بالضرورة ، يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضـــعف وتخمد آثاره مع الضعف ، فكما أن القوى لا يموت جوعا كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثل الأعلى للحرية .

ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الأصـــلى

الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان . فقد اصبحنا نمتعض من كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية والمدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى اعلى البلاد مدنية واصبحنا كذلك نرى أن الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الامة هى حكومة الدستور . ومنا من لايخشى أن يصرح بأن استقلال الامة هو الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج فى مراقى الحرية والتقريب من مثلها الاعلى المتفق عليه بيننا ، الا الوسائل المنتجة . فان ادارة الامر شىءوالقدرة عليه شىء آخر

أما القوة فان طبيعتها تختلف فى كل زمان ومكان تبعا لطبيعة عيشة الامة واعتقاداتها الدينية وعاداتها واخلاقها ، ونتيجتها تختلفدائما باختلاف طبيعةالوسائل التى يمكن استخدامها . وعندنا ان أول مظهر للقوة هى القوى المعنوية قوة الحرية العلمية فان الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة خصوصا فى الازمان الحاضرة معارضة تذكر . فاذا استخدم المتعلمون ارادتهم فى اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم فى تربية اخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأى والصبر على الأذى الذى ينتج دائما عن حرية الرأى سواء أكان من الحكام أم من المحكومين

ان الذين يبخلون علينا بالقرب من المثل الاعلى من حريتنا التى أتانا الله اياها من فضله، يجدون أمثلة تقصيرنا فى اظهار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى ارادتنا على البقاء على مانحن عليه . فاذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العلمية الارادية قوة لا يقف أمامها استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء ولااستدرار

المنافع الخسيسة ، لايجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا الى المثل الأعلى لحريتنا . ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها غير كافية فى تقريبنا من مثلها الأعلى . اقول وأؤكد انها هى وحدها كافية فى انالتنا طلبتنا . فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها ولننتظر النتيجة

ان تقدمنا فى نيل قسطنا الطبيعى من الحرية يستحيل أن يوجد ولو كانت فى أيدينا اكبر معدات القوة الوحشية، وكان عددنا أضعاف مانحن عليه ، اذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والافكار من غير تمحيص اعتمادا على مكانة قائلها . واذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والأوهام التى أفسدت علينا الاستفادة من المبادىء الجديدة . اننا اذا جربنا ان نرفع منار الحرية فى الميدان الذى لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لاظهار شيء من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأييدها

الاصدقاء الخمسة

ولقد اصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الاعلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان ، وصرنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية او يعطل استعمال الحرية المدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى اعلى البلاد مدنية ، واصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الامة هى حكومة الدستور وان الطلبة الكبرى التى يجب ان توجه اليها قوى الشعب بأسره ، هى الاستقلال التام

لهذا نهضنا نهضة مباركة ، وهدفنا هذا الغرض العظيم ، وبدأنا نحن الاصدقاء الخمسة : « سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وانا » .. نفكر فى كيفية الاستفادة من المبادىء الاربعة عشر التى اعلنها الرئيس ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة .. تلك المبادىء الحرة التى تنص فى جملتها على ان كل امة مهما صغرت ، لها الحق فى اختيار مصيرها ، وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض ارادتها وحريتها

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ ، بدأنا نؤلف الوفد المصرى ، واستقلت من دار الكتب المصرية .. واخذنا نعمل فى ذلك الحين على ما جاء فى «مذكرات صديقى عبد العزيز فهمى» باشا (١)

---

(١) هذه المذكرات صفحات نفيسة من الثورة الوطنية فى مصر لا غنى لقارىء تاريخ مصر عن قراءتها .. وسننشرها قريبا فى سلسلة كتاب الهلال

ولا استطيع بالضبط ان أروى الآن ماجرت به الحوادث من وقت تأليف الوفد ، وان كنت قد كتبت بها يوميات لكني اضطررت لاحراقها ، كما سأقص هنا :

بعد أن نفي الى مالطه أصحابنا الأربعة : سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقي ، وحمد الباسل . قامت في البلاد ثورة عنيفه في اوئل سنة ١٩١٩ ؛ كانت من الخطر بحيث لم نكن نتوقعها ؛ حتى لقد ألف في مديرية المنيا جمهوريه برياسه الدكتور محمود عبد الرازق بك الطبيب . وقطعت سكة الحديد بينها وبين القاهره . وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات في بعض مديريات الوجه البحري، فدعتنا نحن اعضاء الوفد الباقين السلطة العسكريه للمثول امامها في فندق سافوي . وكان بين ضباطها العظام مستر ايموس .. فلما مثلنا امامها وجه القائد العام الينا الكلام، محملا ايانا مسئولية الثورة .. فكان جوابي على هذه التهمة :

« ان الوفد بريء منها ، وان تبعتها تقع على السلطه العسكريه التي نفت اربعه من رجال الوفد المصري بلا ذنب أتوه الا أن يطالبوا بحرية بلادهم ، ثم قابلت المظاهرات البريئة بالمتراليوز ، فغضب اهالي البلاد لقتل أبنائهم ، وقاموا بهذه الحركة ، واني انصح للسلطة العسكرية ان تستدعي حسين رشدي باشا ، او عدلي يكن باشا ، او ثروت باشا ليؤلف وزارة تعمل على ترضية الامة ترضية كافية . وبهذا يقضي على الثورة »

وبعد لقائنا لرجال السلطة العسكرية بأيام قلائل ، كنت مع صديقي عبد العزيز فهمي مجتمعين في منزل على شعراوي ، فوفد علينا صديقنا الدكتور يوسف نحاس ؛ فقال لنا انه علم عن ثقة ان السلطة العسكرية الانجليزية ، ستفتش بيوت اعضاء الوفد الباقين ، وتقبض

على اربعة منهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى ، وتصادر املاكهم »

على هذا الخبر ، قمت انا وعبد العزيز باشا ، وركبنا سيارة شعراوى باشا ، واوصلت عبد العزيز الى منزله بمصر الجديدة ، وذهبت الى بيتى بالمطرية ، فاحرقت كل اوراقى السياسية ، لأنه لم يكن عندى الوقت الكافى لفرزها . وكان من بينها يوميات الوفد التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى باشا ، وعدلى باشا ، وثروت باشا .. احرقتها خوفا عليهم من ان يصيبهم ما سيصيبنا من عنت واستبداد ونكال

ويلسون يوافق على الحماية

جلست بعد حرق هذه الأوراق فى مكتبى ، انتظر التفتيش والقبض حتى الصباح . ولكن لم يكن من ذلك شىء .. وفى هذا الحين عين المارشال اللنبى معتمدا بريطانيا فى مصر ، واعلن انه يقبل من اى كان ما يراه فى امر وقف الثورة القائمة ، وعودة السكينة والسلام الى البلاد . فأرسل اليه الوفد تقريرا شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها الى تصرف السلطة العسكرية العنيف ، ونصح بتنصيب واحد من الثلاثة المذكورين سالفا رئيسا للحكومة ، والافراج عن المنفيين الاربعة واعطاء البلاد الترضية الكافية

وعلى اثر وصول هذا التقرير اليه استدعانا واخذ يناقشنا ، حتى اقتنع بما فيه ، فتألفت وزارة برياسة حسين رشدى باشا ، وصدر الأمر بالافراج عن المنفيين ، وابيح لنا السفر الى انجلترا على باخرة عسكرية انجليزية ، ذهبت بنا الى مالطة ، فاصطحبنا زملاءنا : سعدا ، ومحمد محمود ، وصدقى ، وحمد الباسل . حتى اذا ما وصلنا

الى مرسيليا جاءنا تلغراف بأن مستر ولســــون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر، فكانت صدمة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب ، واعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم اجمع بالغبطة والاعجاب ؛ وبخاصة عند الشعوب المهضومه

فى مؤتمر الســلام

ذهبنا الى باريس ، وتقدمنا لمؤتمر السلام . فأغلق ابوابه امامنا . وقابلنا اعضاؤه على النحو الذى ايأســـنا منه ، ووصفه صديقى عبد العزيز فهمى باشا فى مذكراته

ولما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رياسة المفاوضات، وانتقل الامر الى خصومة كان مظهرها التلاحى . اعتزلت السياسة . ثم عرض على ان ارجع لدار الكتب المصريه ، فرجعت اليها ؛ واخذت اشــــغل بها وبترجمتى لمؤلفات ارسطو . وبالجامعة المصرية القديمة التى كان رشـــدى باشا رئيسا لها . وكنت وكيلا لها

واذكر انى فى ســــنة ١٩٢٢ وضعت منهاجا لهــذه الجــامعة باعتبــارها كليــة للاداب، وقابلت الملـــك فؤاد . وعرضت عليه هذا المنهاج ؛ وطلبت ان يجعـــل الحكومة شهادتها كشهادات المدارس العليا . ما دام منهاجا يقضى بموافقة الحكومة عليه وتمثيلها فى الامتحانات ، فكان جواب الملك فؤاد :

« ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة ؛ فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها .. » . فاغتبطت بذلك وجمعنا مجلس ادارة الجامعة والجمعية العمومية ، ليوكل رشدى باشا فى التعاقد مع الحـــكومة بشروط وضعت لتحقيق هذا الانضمام

الفصل الثالث عشر

من الجامعة إلى الوزارة ...

* كيف لمسنا الجامعة
* الجامعة مصدر التطور القومى
* البنات .. كيف التحقن بالجامعة

اسسنا الجامعة

ذكرت أن الملك فؤاد قال لى ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا ؛ وانه يمكن اعتبار الجامعة المصرية كلية آداب فيها ..

على هذا الوعد عقدنا مجلس ادارة الجامعه فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة المصريةالى وزارة المعارف العمومية . وكتبنا بذلك عقدا امضاه احمد زكى ابو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ؛ وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة . وعنيت بأن أذكر فى شروط هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين استاذا فى الجامعة الجديدة

وقد يكون من المفيد ان اسجل فى هذه الصفحات ذلك العقد وتلك الجلسة التاريخية التى تم فيها هذا التسليم على النحو الاتى :

محضر الجلسة

نظرا الى ان الجامعة المصرية طلبت الى وزارة المعارف العمومية ان تعتبر شهادتها كشهادات المدارس العالية التى تخول التوظف فى الحكومة ، فاجابت الوزارة بما يأتى: « ليس فى وسع وزارة المعارف الاعتراف بالشهادة التى تمنحها الجامعة لمتخرجيها بالكيفية المرغوبة ما دامت بعيدة عن الاشراف على الدراسة فيها »

ولما كانت الوزارة معتزمة انشاء جامعة اميرية فسيكون

بالضرورة بين اقسامها كلية للآداب قد تنافس كلية الاداب للجامعة المصرية . فاذا رايتم تلافيا لهذا التنافس ضم كلية الاداب بالجامعة المصرية الى وزارة المعارف ، فان النظام العام الذى يوضع للجامعة الاميرية سيكون شاملا لها فتصبح نواة لقسم الآداب بها

ومتى تم هـذا الضم شرعت الوزارة فى فحص منهج الدراسة بهذه الكلية ونظام الامتحان بها ليكون ذلك توطئة لتقدير درجة الشهادة التى تمنحها

فاذا ما وافقت ادارة الجامعة على وجهة النظر هذه فان وزارة المعارف مستعدة للنظر فيما يلزم لتحقيق هذا الفرض

ونظرا الى ان الجامعة المصرية المؤسسة فى سنة ١٩٠٨ تحت رئاسة سمو الأمير احمد فؤاد ـ جلالة الملك فؤاد الاول ـ انما كان الفرض منها القيام بأمر التعليم العالى الحر ، مقام الحكومة التى لم تكن وقتئذ لتوجه العناية الكافية الى هذا الأمر

ونظرا الى ان الجامعة المصرية لقلة مواردها ولعدم اعتبار شهادتها فى التوظف بوظائف الحكومة لا تستطيع ان تتم تكوينها بانشاء الاقسام المختلفة للعلوم . بل هى بحيث لا تستطيع بسهولة ان توسع كلية الآداب الى الحد المرغوب فيه

ونظرا الى ان الذى يهم القائمين بالجامعة ، هو ان توجد بالبلاد جامعة مستقلة حرة يرتقى فيها التعليم العالى الى المستوى الذى يأتلف مع اطماع البلاد فى الارتقاء العلمى . لذلك رحبوا بفكرة توحيد الجهود التعليمية واندماج الجامعة المصرية فى الجامعة الجديدة . واهم ما اشترطوا لذلك ضمانة حرية الجامعة الجديدة فى ادارتها المالية ووضع برامجها وتنفيذها ثم استيفاء آثار الحركة القومية

المباركة التي اوجدت الجامعة المصرية . ولهذا اقترح احد عشر عضوا من اعضاء الجامعـــة المصرية على جمعيتهم العمومية ان تفوض مجلس ادارتها فى تسليم الجامعة الى وزارة المعارف بالشروط التى لا تخرج فى شىء عن ضمانة حرية التعليم واستقلاله واستبقاء الحركة القومية نحو التعليم فى سنة ١٩٠٨ فقررت الجمعيـــة العمومية ذلك بالاجماع وندب مجلس الادارة الى تحقيق هذه الغاية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية

بناء على هذه الاعتبارات

اجتمع حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشـــا رئيس الجامعة المصرية وحضرة صاحب المعالى احمد زكى ابو السعود باشا وزير المعارف فى يوم الاربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بوزارة المعـــارف العمومية لتحقيق هـــــذه الغــاية

وبعد الاطلاع على الوثائق الآتية :

١ ــ كتاب وكيل الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣

٢ ــ جواب وزارة المعارف العموميـــة المؤرخ فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ردا على ذلك الكتاب

٣ ــ الاقتراح المقدم من احد عشر عضوا من اعضـــاء الجامعة المصرية الى جمعيتها العمومية

٤ ــ محضر جلسة الجمعية العمومية للجامعة المصرية المنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣

٥ ــ محضر جلسة مجلس ادارة الجامعة المصريةالمنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣

٦ – مشروع لائحة الجامعة الجديدة
٧ – مشروع الامر العالى بتأليف الجامعة المذكورة
بعد الاطلاع على هذه الوثائق وارفاق صورها بهذا المحضر

وبعد تبادل النظر فى كل جهة من جهاته بين الطرفين تم الاتفاق على ما يأتى :

المادة الاولى

قد تنازل باسم الجامعة المصرية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيسها عن هذه الجامعة مع كل ما تمتلكه من منقول وعقار الى وزارة المعارف العمومية على الشروط الآتية :

١ – ان تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت اشراف وزارة المعارف العمومية كما هى الحال فى جامعات اوربا

٢ – ان تقوم الحكومة باتمام النظام الحالى الذى لا يشمل سوى كلية فى الآداب بان تدمج فى الجامعة مدرستى الحقوق والطب بعد تحويلهما الى كليتين وان تضم اليها كلية للعلوم . ويجوز ان تضم اليها كليات أخرى فيما بعد

٣ – ان تستعمل نقود الجامعة البالغ قدرها نحو ستة واربعين الف جنيه فى البناء احتراما لشروط بعض الواقفين

٤ – ان تحترم تعهدات الجامعة نحو اساتذتها وموظفيها الحاليين . اما فيما يتعلق بالدكتور طه حسين فقد رؤى نظرا لحالته الشخصية ان يبقى استاذا بكلية الآداب

٥ – ان يكون من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى

عضـــو او اكثر فى مجلس ادارة قسم الآداب وفى مجلس ادارة الجامعة وذلك فى الدور الاول من التشكيل استيفاء لآثار النهضة القومية التى أوجدت الجامعة المصرية

المــادة الثــانية

قبل حضرة صاحب المعالى احمد زكى ابو السعود باشا وزير المعارف العمومية باسم هذه الوزارة هذا التنــازل واستلام الجامعة المصرية وما تملك من منقول وعقـــار لادماجها فى الجامعة الجديدة بالشروط الخمسة المبينة بالمادة الاولى

المادة الثالثة

ينفذ هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى

المــادة الرابعة

كتب من هذا الاتفاق نسختان تحفظ احداهما فى وزارة المعارف العمومية وتحفظ الثانية فى محفوظات كلية الاداب التابعة للجامعة

تحريرا بوزارة المعارف العمومية
فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣
رئيس الجامعة المصرية
حسين رشدى

وزير المعارف العمومية
احمد زكى ابوالسعود

رسالة الجامعة

وعلى اثر تكوين الجامعة الجديدة وضعنا لها قانونا راى الشارع فيه ان رسالة الجامعة يجب ان تكون اوسع مجالا من ان تحد بحدود معينة ، فجاء نص رسالتها مرنا يتسع لكل ما تقدر عليه من الالوان المختلفة لخدمة العلم والقيام بالتعليم . وقد جاء فى مادته الثانية «ان اختصاص الجامعة يشمل كل ما يتعلق بالتعليم العالى الذى تقوم به الكليات التابعة لها . وعلى وجه العموم ، فان عليها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل لرقى الآداب والعلوم فى البلاد »

واعتمادا على هذا النص المرن ، الذى يتناول كل تطور جامعى لخدمة العلم والتعليم والآداب والفنون المختلفة فى البلاد ، اعتمادا على هذا النص كانت رسالة الجامعة متعددة النواحى

فمن رسالة الجامعة أن تقوم البحوث العلمية فى العلوم وفى الاداب التى تنتج عندنا كما انتجت عند غيرنا الزيادة فى النظريات العلمية التى هى فى تطور مستمر ، والتى تنتج الوصول الى اكتشافات جديدة تضاف الى ما اكتشفته الجامعات الاخرى مما له صبغة علمية بحتة ، ومما له تطبيقات عملية تنفع الناس فى ان تسخر لهم قوى الطبيعة وموارد الطبيعة . وليس خافيا ان الجامعة اذ تقوم بهذه الرسالة تحمل عن مصر واجبها من المشاركة العامة فى رقى العلوم والمعارف فى العالم

ومن رسالة الجامعة تربية شبيبة الاجيال المتعاقبة لتهيىء للبلاد قادتها فى جميع مرافقها . ولا شك ان قوة الامة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة ليست آخر الامر الا نتيجة لتربيتها الجامعية

ومن رسالة الجامعة نشر الثقافة العلمية والادبية فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك باباحة الانتساب الى معاهدها المختلفة من غير قيد ولا شرط ، أم بالقاء المحاضرات العامة فى العلوم والآداب والفنون ، أم بنشر المؤلفات فى كل فرع من الفروع

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة ، التجديد فى النثر والشعر ، التجديد فى نظرة الناس الى الفنون الجميلة والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها . ولا يفوتنى ان انبه الى ان هذه الرسالة تتناول أيضا الموسيقى والغناء ، لما لهما من الاثر الطيب فى الاخلاق ، بل لانهما كذلك لهو جميل لابد منه . وعلى كل أمة ان ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها ان ترقى اسباب جدها العابس

واخيرا ، فان الجامعة بما هى من أكبر الوحدات الاجتماعية عددا وأسماها مكانة ، واخطرها مسئولية ، وأشملها رسالة هى بكل اولئك مصدر اشعاع يشع منه التضامن القومى . ففى العائلة يولد التضامن ، وفى المدرسة ينشأ ، وفى الجامعة يشب ويؤتى كل ثمراته ، ويضرب المثل الاعلى للتضامن فى جميع طبقات الشعب

البنات .. كيف التحقن بالجامعة ؟

وبهذه المناسبة انبه على سبيل الاستطراد ان خطأ الجمهور فى فهم رسالة الجامعة من انها تنحصر فى تحضير

موظفين لادارة الحكومة . والواقع أن هذا الفهم لا ينبغى ان يكون من أغراض الجامعة الا عرضا

ويتصل بخطأ الجماهير فى فهم أغراض الجامعة ، تلك المسألة التي كانت شائكة قليلة الانصار فى الرأى العام . وهى مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات فى الجامعة لهن ما لاخواتهن الطلبة من الحقوق ، وعليهن ما عليهم من واجبات . ولا أخفى اننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الاسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بأخواتهن فى الدرس ، فقد حدث ان طلب الى بعض عمداء الكليات فى أول سنة لافتتاح جامعة فؤاد ان نقبل فيها البنات الحائزات للبكالوريا ، فأسررت لهم فى ذلك الحين ان هذه المسألة شائكة ، وانى أشك فى رضى الحكومة عنها . وعلى ذلك قررنا فيما بيننا ان نقبل البنات الحائزات على البكالوريا ، من غير ان تثار هذه المسألة فى الصحف أو فى الخطب ، حتى نضع الرأى العام والحكومة معا أمام الامر الواقع . وقد نجحنا فى ذلك . وبعد ان سرنا فى هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه ، فقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط ، فلم نأبه لها ، لاننا على يقين من ان التطور الاجتماعى معنا ، وان التطور لا غالب له . ومعنا العدل الذى يسوى بين الاخ وأخته فى أن يحصل كلاهما على أسباب كماله الخاص على السواء ، ومعنا فوق ذلك منفعة الامة من تمهيد الاسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع اطماعنا فى الارتقاء القومى ـ كل اولئك جعلنا لا نحفل بهذه الضجة التى ما لبثت ان ذهب بها الزمان !

فكرة أصبحت حقيقة

وفى ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ احتفلت الجامعة بوضع الحجر الاساسى لمبانيها الحالية بحضور جلالة الملك فؤاد

وكان هذا اليوم تاريخا مشهورا . ففى منتصف الساعة الثانية عشرة اقيم احتفال كبير فى المكان الجديد بالجيزة دعى اليه علية القوم من الامراء ورجال الدين والوزراء والآداب • وبعـــد أن وصل الملك فؤاد ، وقف وزير المعارف فى ذلك الحين على الشمسي باشا ، فألقى خطبة بين يديه . ودعا الملك لوضع الحجـــر الاســاسى بيده • وألقيت أنا خطبتى كمدير للجامعة . وقد سجلت فيها الأدوار التى مر بها التعليم فى مصر ، وهى ثلاثة ادوار :

دور الدعاية ، ودور البدء فى التنفيذ ، ودور التمام ..
فأما الدور الاول فيبتدىء من يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اذ اجتمع نخبة من أهل الغيرة على التربية فى دار المرحوم سعد زغلول باشا وتعاقدوا على الدعوة لانشاء الجامعة ، وقرروا فيمــا قرروا ان تكون الجــامعة بمعزل عن السياسة . وقد اقبل الناس على الاكتتاب فيها والتبرع لها . واجتمعت جمعية المكتتبين فى ديوان الاوقاف فى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ تحت رياسة الامير احمــد فؤاد (الملك فؤاد الاول) وسموها الجامعة المصرية ، ونفحتها الحــكومة اعانة سنوية ، كما نفحتها الاوقاف خمسمائة جنيه اعــانة سنوية أيضا

أما دور التمهيد ، فكانت بمحاضرات الثقافة العامة التى كان يشرف عليها يوميا رئيس الجامعة وبارسال بعثات علمية للجامعة بلغ عددها اربعة وعشرين للتخرج فى العلوم ، وليحضروا أنفسهم ليكونوا معلمين فيها

وأما دور التمام ، فكان بنقل الجامعـــة القديمة الى الجامعة الجديدة على نحو ما وصفت فى السطور السابقة وقد بلغ عدد طلبة الجامعة فى سنة ١٩٢٨ ويوم تأسيس مبانيها ٢٣٤١ طالبا . وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك حتى وصل الى ما وصل اليه الان

الفصل الرابع عشر

من الوزارة
إلى المجمع اللغوي

* كيف دخلت الوزارة !
* عودتي الى الجامعة
* لماذا استقلت من الجامعة

كيف دخلت الوزارة

لما أسند الملك فؤاد الاول الى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونيه سنة ١٩٢٨ دعانى وقتئذ الى الاشتراك معه فى الحكم ، فاعتذرت له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، فقال لى رحمه الله :

ــ وهل يرضيك يا صديقى ان تتركنى وحدى ؟!..

فمست هذه العبارة شعورى ، وقبلت الاشتراك معه فى الوزارة .. وكان من حظى ان أتولى وزارة المعارف ، وهى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف اليه من خدمة الامة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال ، فان التعليم هو الأساس الذى يبنى عليه تحقيق الاطماع القومية . ولو ان العظمة القومية التى تبغيها مصر تنال بالجهل ، وبتفكك الروابط القومية الدالة على عدم التربية ، لكان ذنبا علينا ان نفكر فى حال التعليم والاخلاق عندنا . ولا جدال فى ان العلم ضرورى لتقدمنا بل هو ضرورى لحياتنا الحاضرة ، وانه هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار فى معترك الحياة للفرد، والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام هذه المدنية الحديثة . كما ان تربية الاخلاق هى أساس قوة الامم

وقد قال جوستاف لوبون : « ان الرومانيين فى زمن انحطاطهم كانوا أشد ذكاء من أجدادهم الاشداء ، ولكنهم

فقدوا الخواص الاخلافية كالصبر والعزيمة ، والثبات ، والاستعداد لتضحية النفس فى سبيل الغاية ، والاحتفاظ باحترام القوانين . تلك الخواص الاخلاقية كانت هى سر عظمة آبائهم الاولين »

بعد ذلك أعود ، فأقول ان وزارة المعارف حين أسندت الى ارتحت للعمل فيها لما قدمت . فقد أهتممت أول ما اهتممت بتطبيق اللامركزية ، وقسمنا العمل فيها باعتبار ان الوزير رجل سياسى ، لا يشتغل الا بالمشروعات الجديدة وتطبيق سياسة الوزارة ، وليس له معرفة بموظفى الديوان ، فأمرهم ينبغى ان يتعلق بوكيل الوزارة وشهادات المراقبين

العودة للجامعة

لم أستمر طويلا فى وزارة المعارف ، لان وزارة محمد محمود باشا لم يزد عمرها عن خمسة عشر شهرا وبضعة أيام اذ تألفت فى ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ واستقالت فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرسون . وقد اعتكفت بين كتبى وأوراقى حتى كانت أوائل سنة ١٩٣٠ حين استدعيت للعودة مديرا للجامعة ، فارتحت لاستئناف نشاطى بين أبنائى شباب الجامعة . وبين زملائى أساتذتها ، واغتبطت كل الاغتباط لانى أمضيت عهدا غير قصير فى العمل الجامعى ، وألفت هذه البيئة الجامعية التى تقوم على الاخلاص للعلم والتضحية فى خدمته ، والاستقلال فى الراى والفكر والعمل ـ وأقول الاستقلال لان أساس التعليم الجامعى حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، ولان التربية الجامعية قوامها حرية العمل والبعد عن التأثيرات الحكومية ، وتأثيرات البيئات العامية ، وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة

استقالتى من الجامعة

وقد حرصت منذ توليت منصب مدير الجامعة على ان تكون بعيدة عن هذه التأثيرات وان يكون استقلالها محل الاحترام والقداسة . ولكن حدث فى مارس سنة ١٩٣٢ ان اعتدت وزارة المعارف على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته بكلية الآداب الى احدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة ، وان لم تكن الوزارة فى ذلك قد جاوزت حدود القانون الجارى العمل به الا انها جاوزت حدود التقاليد الجامعية، فغضبت لهذا الاعتداء على هذه التقاليد ، وقابلت دولة رئيس الوزراء فى ذلك الحين اسماعيل صدقى باشا ، وشرحت له هذا الموقف الذى يتنافى مع التقاليد الجامعية ، ويسىء الى الجامعة وقلت له ان الجامعة لاتستغنى عن طه حسين. واقترحت عليه تلافيا للضرر ، واحتراما لرأى الوزير حلمى عيسى باشا ، ان يرجع الدكتور طه بك استاذا بكلية الاداب لا عميدا . وقد وافقنى رئيس الوزارة على اقتراحى ، وفى اليوم التالى علمت برفض اقتراحى ، وتنفيذ رأى الوزير . فلم أذهب الى الجامعة ، وحررت استقالتى وبعثت بها الى وزير المعارف العمومية فى هذا الكتاب التالى :

« هليوبوليس ٩ مارس سنة ١٩٣٢

« حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية »

« سيدى الوزير

« أتشرف باخبار معاليكم أنى أسفت لنقل الدكتـــور طه حسين عميد كلية الآداب الى وزارة المعارف ، لأن هذا الاستاذ لا يستطاع فيما أعلم أن يعوض الان على الاقل ، لا من جهة الدروس التى يلقيها على الطلبة فى الادب العربى ومحاضراته العامة للجمهور ، ولامن جهة هذه البيئة التى خلقها حوله وبث فيها روح البحث الادبى وهـــدى الى طرائقه . ثم أسفت لان الدكتور طه حسين أستاذ فى كلية الاداب تنفيذا لعقد تم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف وعلى الاخص لان نقله على هذه الصورة بدون رضى الجامعة ولا استشارتها كما جرت عليه التقاليد المطردة منذ نشأة الجامعة فيما أعرف ـ كل ذلك يذهب بالسكينة والاطمئنان الضروريين لاجراء الابحاث العلمية . وهذا بلا شك يفوت على أجل غرض قصدت اليه من خدمة الجامعة

« من أجل ذلك قصدت يوم الجمعة الماضى الى حضره صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ،واستعنته على هذا الحادث الجامعي الخطير ، واقترحت على دولته تلافيـا للضرر من ناحية ، واحتراما لقرار الوزير من ناحية أخرى أن يرجع الدكتور طه حسين الى الجامعة استاذا لاعميدا، خصوصا أنههو نفسه الح على فى أنيتخلى عنالعمادة منذ شهر فلم أقبل ، فتقبل دولة الرئيس هذا الاقتراح بقبول حسن ، واكد لى انه سيشتغل بهذه المسألة منذ الغـــد فاشتغل بها الى أن علمت الآن أن اقتراحى غير مقبـول وان قرار النقل نافذ بجملته وعلى اطلاقه

ومنحيث أنى لاأستطيعانأقر الوزارة علىهذا التصرف الذى أخشى ان يكون سنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية واغيارها ، اتشرف بأن أقدم بهذا الى معـاليكم استقالتى من وظيفتى ، أرجو قبولها كما أرجو ان تتقبلوا

شكرى على ما أبديتم من حسن المجاملة الشخصية مـدة اشتراكنا فى العمل ، وان تتقبلوا فائق احترامى »

ثلاث مخالفات !

هذا هو خطاب استقالتى . وهو يدل على ان وزارة المعارف ارتكبت فى حادث نقل الدكتور طه حسين ثلاث مخالفات : الاولى ـ خاصة باستقلال الجامعة ، والثانية ـ خاصة بمصلحة التعليم الجامعى وحرمانه من هذا الاستاذ النابغ ، والثالثة ـ خاصة بالعقد الذى ابرم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف حين نقلها الى الجامعة الجديدة وقد اشترط فى هـــذا العقـــد ان يكون الدكتور طه حسين استاذا بكلية الاداب

قبلت استقالتى . ومكثت بعيـدا عن الجامعـة حتى ابريل سنة ١٩٣٥ حين جـاء نجيب الهلالى باشا وزيرا للمعارف فى وزارة محمد نسيم باشـــا الثانية ، فجاءنى وطلب الى العودة الى الجامعة ، فاشترطت ان يعـــدل قانونها بحيث ينص فيه على أنه لا ينقل استاذ منها الا بعد موافقة « مجلس الجامعة » وقـــد بر نجيب باشا بوعده ، وطلب تعديل القانون ، وعدل فعلا

وفى تلك السنة طلبت ان يضـــم الى الجـامعة بعض الكليات فضمت كلية الهندسة ، وكلية التجارة ، وكليـة الزراعة ، وكلية الطب البيطرى

مكثت مديرا حتى أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٧ . وفى ذلك الحين اشتد الخصام بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لان الاحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالاخاء الجامعى ، ويسقط قيمـة الشمائل الجامعيـــة ، فطلبت من وزارة الداخلية تعيين كونستبلات لحفظ النظام ، لان البوليس

لا يجوز له أن يدخل الحرم الجامعى ، فلم تجب الداخلية طلبى . لذلك استقلت للمرة الثانية

وبعد ثلاثة اشهر ــ اى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة ــ تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى . وقد اشتركت فيها جميع الهيئات السياسية ما عدا الوفد ، والهيئة السعدية ، وكنت وزير دولة فى هذه الوزارة ، ثم اجريت الانتخابات ، وكلف محمد محمود باشا مرة ثانية بتأليف الوزارة ، فكنت بها أيضا وزير دولة ، ثم وزيرا للداخلية بضعة اشهر . ثم ظهر لى ان المصلحة السياسية تقضى باشتراك الهيئة السعدية فى الوزارة ، فعرضت هذا العرض على خشبة باشا ، واصررت على أن أخرج من الوزارة لافسح الطريق لغيرى من السعديين

ودعت الجامعة سنة ١٩٤١

وبعد ذلك بقليل زارنى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وطلب الى الرجوع الى الجامعة ، فاعتذرت ، ثم جاءنى مرة ثانية من قبل محمد محمود باشا ، وألح على ورجانى أن أضع شروطى ، فقلت :

ــ لا شروط لى الا أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة ، لان اتصالهم بهم كان يفضى دائما ــ كما ذكرت ــ الى فقدان الاخاء الجامعى بينهم . وذلك من أضر الاشياء على التربية الجامعية

فأجابونى لطلبى ، وقبلت الرجوع الى الجامعة . ولكن لم يمض قليل حتى أخبرنى أحد الوزراء ان الطلبة متصلون بوزراء الأحرار الدستوريين فقدمت استقالتى لمحمد محمود باشا ، فاعتذر ، وأكد لى انه لا يعلم ذلك وانه سيصدر أمرا مشددا بعدم اتصال الطلبة بالوزراء لاغراض

سياسية فبقيت فى الجامعة الى سنة ١٩٤١ اذ عرض على رئيس الحكومة وقتئذ حسين سرى باشا أن اكون عضوا فى مجلس الشيوخ ، فقبلت ذلك ، لأنى أحسست بانى محتاج الى الراحة بعض الشيء من أعمال الجامعة بعد أن خدمتها فى عهدها القديم وعهدها الجديد زمنا طويلا . ثم توليت بعد ذلك رياسة « مجمع اللغة العربية » ومكثت فيه مع رجال أحبهم واهم رجال اللغة والعلم والادب

الفصل الخامس عشر

الأخلاق
وكيف ينبغي أن تكون لتحقيق سلام عالمي

* التعاون في سبيل السلام
* هل الحرب طبيعية ؟
* أدب السياسة الدولية
* يجب القضاء على الاستعمار

التعاون فى سبيل السلام

التعاون العام بين أمم العالم موجود على وجه متقطع وكيفما اتفق أن يكون . ليس خاضعا لنظام معين . غير أن هذا ليس هو التعاون الذى يقصد اليه ميثاق الاطلنطى بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذى يمنع الاعتداء ويؤدى الى السلام الدائم

بادىء بدء لا ينبغى أن نخدع أنفسنا فيما يعترض هذا التعاون من صعوبات أعسرها تذليلا هو الايمان به . فاذا نحن تشبثنا بسنن الماضي وما ألفناه من أخلاق الناس على العموم وأخلاق قادة الشعوب على الخصوص ، وما سجل التاريخ من الاعيب السياسة وغدرها وقدرنا قوة أنصار الحرب والعاملين عليها والمنتفعين من ورائها ويئسنا من أن نقطع الصلة بين ماضى الانسانية وبين مستقبلها فى هذا الصدد ، فما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه التعاون الذى ندعو اليه بنظام جمعية الامم الماضية . ولا يرى أنصار الاعتداء على كل هذه الجلية الا أنها صلف تحت الراعدة

أما اذا رجونا الخير وقدرنا ما نحن فيه اليوم من الضرورات الاجتماعية والحرج السياسي وقدرنا أن العالم أصبح لا يطيق بعد الآن حروبا على غرار الحرب الحاضرة ، وقدرنا

---

(١) أردنا أن نختتم هذه القصة التاريخية التى أملاها أستاذ الجيل احمد لطفى السيد على رئيس التحرير بهذه المحاضرة القيمة التى القاها سيادته فى قاعة يورت بالجامعة الامريكية فى مساء الجمعة ٢٩ يناير سنة ١٩٤٣

حق قدره الارتقاء الاجتماعى فى العالم ، ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجربة القاسية للأخطاء الماضية ستنفع العالم فى تسديد خطاه الى الخير ، متى قدرنا كل ذلك وجب أن نتقبل مشروع التعاون المانع من الاعتداء والمفضى الى السلام الدائم بغاية الارتياح وآمنا به وعملنا على تحقيق وسائله . فلقد آن لضمير العالم أن ينتبه ويجعل الاخاء الانسانى حقيقة واقعة بعد أن لم يكن الى الآن الا لفظا ليس له ما يدل عليه

الواقع من أمر الناس فى الامم المختلفة وفى المدنيات المتعاقبة أنهم بوازع من قانون الاخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة ، وبوازع من سلطان البوليس والقضاء ، وقد اعتادوا أن يتعاونوا فى معيشاتهم المدنية بالحسنى وتركوا عاداتهم الاولى فى العدوان والجرى على أحكام «حق الاقوى» التى ألفوها أزمانا طوالا فيما قبل المدنيات المنظمة . هذا هو حال أفراد الناس الآن فى الامم المتمدنة ، منازعاتهم يفصل فيها القضاء ويزع سلطان البوليس بعضهم عن الاعتداء على بعض ، فأصبحوا يرون جريمة داعية الى الاحتقار ومستحقة للعقاب ما كانوا فى حال البداوة يتمدحون به ويجعلونه مناطا للعزة ومجلبة للشرف والفخار

اذا ليس الظلم والعنف فى الناس أمرا طبعيا لامناص منه كما قد يظن ، انما كان ذلك فيهم قبل نظام الدول عادة اعتادها آلافا لا تحصى من السنين ، كان الافراد فى كل لحظة محلا لافتراس السباع . اقتضاهم ذلك أن تكون حياتهم فى حرب متصلة ودفاع مستمر . فلما اطمأنوا من هذه الناحية استمرت عادة الهجوم والدفاع فى أنفسهم غير أنها تحولت الى أن تكون حربا بينهم حتى قضت عليها المدنية المنظمة بالبوليس والقضاء

تلك حال الافـــراد . وأما حال الامم أو بالاولى حال الحكومات فلم تجد كما وجد الافراد تحت ضغط الضرورات الاجتماعية قانونا للأخلاق ولا محاكم تفض النزاع بينها ولا بوليسا يمنع الحكومات من اعتداء بعضها على بعض . بقى فيها روح الفرد الاولى . روح القبيلة ، روح الاعتداء على الغير استعلاء عليه واستعبادا له وطمعا فى أرضه ومرافقه. وبالجملة بقيت كل حكومة حتى فى هذه المدنية الحاضرة تضمر أن تنتزع بالقوة من امة أخرى مالها من المرافق من غير وازع ولا حياء . واذا فقد ظفرنا من المدنيات القديمة بأدب للأفراد ولم نظفر بأدب لحكوماتها يمنعها من الاعتداء والطغيان

هل الحرب طبيعية ؟

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع أنها استوعبت بحث الاشـــياء الانسانية لم تتعرض ولا عن طـــريق التخيل الى امكان القضاء على الحرب بين الامم ولم تفكر فى تحقيق الاخاء الانسانى العام ولا فى السلام الدائم . بل لعلها شجعت الحرب تارة وقست فى نتائجها تارة أخرى . كذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية لم يكن فيهما نظرة فى ذلك الاخاء بين الامم المختلفة كما نظرت كلتاهما فى الاخاء بين أفراد الامة الواحـــدة الا ما سموه « الســـلم الرومانى » . ومن الخير الا نتعرض لذكره ، لانه لا يفيد شيئا فى موضوع التعاون العالمى المنشود

فأما الحرب من طبع الانسان فتلك فكرة انتزعها كتاب وفلاسفة مما هو الواقع . ومن طريف ما يؤثر عن انصار الحرب ما نقلهايميل فاجى عن احد التيازفة أو الصوفية القائلين بوحدة الوجود قال « الحرب الاهية فى ذاتها لانها قانون العالم » . « الحرب الاهية فى المجـد الخفى الذى يحيط بها وفى الجاذبية الخفية أيضا التى تجذبنا اليها » .

« الحرب الاهية فى الحماية الموهوبة للقواد العظام » ... الى أن قال «الحرب الاهية بنتائجها التى تعزب عن تقديرات الناس » . قال أميل فاجى كل هذه الجمل تساوى انه يقول : « الحرب الاهية لانها سخيفة »

وبالجملة فان أهم دليل على طبيعتها هو قدمها . والدم من حيث هو لا يصحح فاسدا ولا يفسد صحيحا . والذى يراه أنصار السلام هو أن الحرب ليست من طبع الانسان كالعائلة والابوة والعمل ، بل هى عادة تأصلت فى نفوس الناس يمكن القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التى لا شك فى أن العالم يتقدم فى أمرها بنسبة ضميره على أثر تفكير المفكرين فيما يصلح حال الانسان

اذن كان لابد من ثورة على القديم فى هذه الناحية أيضا . وقد كانت هذه الثورة أول خاطر فى موضوع السلام الدائم خطر لسوللى وزير هنرى الرابع . ولكن سلامه الدائم لو أنه تحقق لما شمل الا أوربا فقط . وكذلك كان مشروع الاب سان بير فى أوائل القرن الثامن عشر . ولم تكن تلك الا بوادر لم تفد شيئا . حتى كان آخر القرن الثامن عشر اذ انبعث صوت الاخاء الانسانى من جامعة كونجسبرج حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها ايمانويل كنت انشاء حكومة أمم تمنع اعتداء بعضها على بعض . وجه نداء للأمم والملوك قال فيه « ينبغى أن تنظم الامم سلوكها فى كل دولة على قواعد الاخلاق والقانون ، كما يجب على الدول أن ترعى هذه القواعد المتبادلة مهما يكن من تمويه الاعتراضات التى تستنتجها السياسة من التجربة . وحينئذ لا تستطيع السياسة الحقة أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تتبع فيها أوامر على الاخلاق . فان السياسة متى اتحدت بعلم الاخلاق ، لم تعد بعد ذلك فنا صعبا ولا معقدا

ان الادب يفك العقدة التى لا تستطيع السياسة حلها .

يجب اعتبار حقوق الانسان مقدسة ولو ضحى فى ذلك الملوك باكبر الضحايا . لا يمكن فى هذا الصدد التنازع بين الحق وبين المنفعة . وان السياسة يجب أن تركع أمام الادب

لكن هل استمع لهذا النداء الكريم الملوك والحكومات ، نعم أظن ان حكومات الامم الكبرى التى اجتمعت فى مؤتمر فينا بعد هذا النداء بتسعة عشر عاما قد استمعت لهذا النداء ، لكن لا تفعل به حقيقة ، بل لتخدع به الرأى العام للشعوب الوادعةالطيبة التى قلما تحتمل نصيبا من اجرام حكوماتها . وهاكم مذكرة الوزير جنز زميل مترنيخ رئيس المؤتمر المؤرخة فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٤

« ان أولئك الذين اجتمعوا فى المؤتمر وكانوا يعلمون حق العلم طبيعته وأغراضه لا يكادون يخدعون على تطوره أياكان رأيهم فى نتائجه . ان الكلمات الفخمة مثل « اعادة النظام الاجتماعى» و «تجديد المذهب السياسى لاوروبا» و«السلام الدائم المؤسس على توزيع للسلطان » الخ .. انما نطق بها لتطمين الناس ولتفيض على هذا الاجتماع الحافل كرامة وعظمة . لكن الغرض الحقيقى للمؤتمر ، قد كان توزيع أسلاب المقهورين بين القاهرين »

أدب السياسة الدولية

هذا نموذج من أدب السياسة الدولية يتخذه الساسة لمجدهم ومجد ملوكهم وليلقوا به دروسا فى الشر والظلم على الناس أجمعين . افكان الذين اجتمعوا حول مائدة الصلح فى فرساى أصلح نية واصدق قولا من زملائهم فى فينا من قبلهم بقرن كامل ؟ لقد كان كتاب التاريخ السياسى يظنون ان مؤتمر فينا قد أخفق فى مهمته مع انه وقى العالم شر الحروب ٣٩ سنة .

فهل كان مؤتمر فرساى اسعد حظا واجدى على

الانسانية نفعا ، مع أن سلامه لم يزد عمره على العشرين عاما حتى أمكن لاحد الساسة فى الخريف الماضى أن يجمع بين الحرب ويسميها حرب الثلاثين من سنة ١٤ الى سنة ٤٤ . واذا لم يتغير الادب السياسى عما كان فى القرن الماضى . قال الكاتب المعروف « الدس هكسلى» عشية هذه الحرب الحاضرة « ان أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان . أدب الخداع . أدب الشيخ الفيكونت الفاست ، بل لم يتغير هذا الادب منذ عشرين قرنا حين قال الفيلسوف سنيك : هذا هو قانون الانسانية :كل ماهو محرم عليك اتيانه وأنت فرد ، مطلوب منك اتيانه وأنت مدافع عن الدولة .

ترون من ذلك أن للأفراد أدبا جاءت به قوانين الاجتماع داخل كل بلد . فأين أدب السياسة والسياسيين ، والى أى شىء مرده ، الى محكمة الضمير وقد جرى العرف على أن السياسة لا ضمير لها ، أم الى محكمة القانون العام وليس للسياسة الدولية محكمة الا الحرب . قال برتلمى سانتهلير لمناسبة نداء كنت :

« لقد أعلن كنت هذه المبادىء القديمة منذ ستين عاما . ولكننا على رغم ما قطعت الافكار العامة من مراحل التقدم فى هذه المدة ، ما أبعدنا الى الآن عن الفرض الذى ترمى اليه حكمة الفيلسوف . والظاهر أن الملوك والامم لم تتلق بعد دروسا قاسية

نظن الآن أن العالم قد تلقى هذه الدروس القاسية منذ الحرب الماضية فشرع فعلا فى انشاء جمعية الامم . لكنها لم تنجح لانه عند تنفيذها كان الساسة قد نسوا ويلات الحرب ورجعوا الى أخلاق السياسة الدولية فلم تنجح تجربتها وجاءت الحرب الحاضرة بويلاتها التى لا تطاق ، تلقاء هذه التجربة القاسية صدر ميثاق الاطلنطى فى اغسطس سنة ١٩٤١

وهنا يتساءل أنصار السلام : هل انشاء عصبة أمم جديدة خير من عصبة الامم القديمة يمكن أن يوصل الى الغاية النبيلة التى أشار اليها المستر ايدن بقوله : « أن غايتنا هى انشاء نظام عالمى يحقق التقدم السلمى لجميع الشعوب »

العقل والتجربة متفقان على أن نظام عصبة الامم التى لها قوة مسلحة لتنفيذ قراراتها ليس خير أداة للسلام الدائم وبالتبع للتعاون العالمى . لان هذه الاداة متى كمل نظامها كانت كما يقول المستر الدس هكسلى « كأنها عصبة مؤلفة للحرب لا للسلام » والواقع أن العنف يولد العنف . ومع ذلك ليس أمام العمليين من أنصار السلام وسيلة سواها فى الحال الراهنة

غير أن هذه الوسيلة لا توصل الى الغاية الا اذا اقترن بها ابطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه . على هذا الوضع يمكن أن تستل من نفوس الامم الصغيرة تلك الاحقاد التى ولدها استعلاء قوم على قوم . وذلك هو أفسد ما يكون للاخلاق التى ينبغى أن تتخلق بها الامم لتحقيق تعاون عالمى . وفى هذه الحالة الشعوب التى لا تستطيع أن تقوم بنفسها لا تتبع ادارة النظام العالمى الذى أشار اليه وزير الخارجية البريطانية تأخذ هذه الادارة بيدها حتى تستكمل مشخصات الامم التى تستطيع أن تكون عضوا مستقلا نافعا فى التعاون العالمى

يجب القضاء على الاستعمار

ما دام غرض التعاون العالمى هو القضاء على نظرية حق الاقوى مع فسادها فى نظر المنطق القانونى ، وما دام الاستعمار هو أظهر آثار حق الاقوى ، فلا بد للتعاون العالمى من القضاء عليه بجميع أسمائه

كما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام

الدائم كما ذكرت آنفا . كذلك هى لم تتعرض لفكرة استنكار الاستعمار . وأول من تعرض لها من الفلاسفة على وجه بين هو الفيلسوف بنتام، فانه هو وأنصار مذهبه يبغضون الاستعمار ويرونه غير نافع للامم المستعمرة ، فوق أنه مفسد لاخلاق الامم المستعمرة . قال برتران رسل : « اذ كانت الثورة الفرنسية فى الصميم من أمرها ، كتب بنتام رسالة الى تالران عنوانها «حرروا مستعمراتكم»

.. ولم يكن ذلك رأيه فى المستعمرات الفرنسية فحسب بل رأيه كذلك فى المستعمرات البريطانية . وأنه حمل صديقه اللورد لندون على اعتناق مذهبه فقال فى مجلس اللوردات فى سنة ١٧٩٧ « لا يمكن أن يسدى الى اسبانيا خير ، أفضل من تخليصها من لعنة مستعمراتها »

وأخيرا فى عهد جمعية الامم السابقة عرض على الامم المستعمرة فى فرص عدة أن تنزل عن مستعمراتها لتضعها تحت السيادة الدولية فرفضت كلها بلا استثناء . غير أنه ما دام على ظهرها أمم غالبة وأمم مغلوبة ، فلارجاء فى التعاون باخلاص . وكأنى بالامم المغلوبة على أمرها تقول للقاهرين دعاة السلام : أنظرونا نتحلل من ذل التبعية ثم شأنكم والسلام الدائم قرروا فيه ما تشاءون

بقى أن نشير الى أن بعض الكتاب السياسيين يرون أن الاستعمار والوطنية أمران متلازمان ، وأن من العسير ان يحب قوم وطنهم دون أن يقترن هذا الحب بالاستعلاء على الامم الضعيفة أو دون أن يبغضوا غيرهم . هذا قد يكون حقا فى أمر الوطنية الحادة الجامحة التى هى من سلالة عصبية القبيلة . أما الوطنية المدنية أو وطنية المستقبل التى يسيطر عليها التدبر العقلى فانها لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء. والواقع أننا نرى الرجل الفاضل مع حبه لنفسه يسعى الى سعادة غيره فلا مانع اذا يمنع

قوما يحبون وطنهم ، من أن يسعوا فى اسعاد الاوطان الاخرى

التعاون العالمي ممكن

ـ أيها السادة : نسوق كل هذه المقدمات للوصول الى نتيجتين :

الاولى ـ ان التعاون العالمي ممكن متى اقترن به الغاء الاستعمار على الوجه الذى ذكرناه

الثانية ـ أن أدب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف الى الآن بعيد عليه أن يحقق التعاون العالمي . بل لا بد لهذا التعاون من أدب دولى جديد

ونظرا لان أسباب الحروب مهما اختلفت مردها كلها الى الحالة البسيكولوجية للامم وعلى الخصوص الحالة الاخلاقية لقادة الامم . نظرا الى ذلك قد بحث أنصار السلام فى الوسائل التى تؤدى الى منع الاعتداء من جانب أمة على أخرى . وان أوفى بحث أعرفه فى هذا الصدد تلك المحاولة الجريئة الموفقة التى حاولها الكاتب المعروف الدس هكسلي فى كتابه « الغاية والوسائل » . لم يقنع هكسلى بطريقة « كنت » التى لا يزال الساسة يسيرون عليها سواء أكان ذلك فى جمعية الامم السابقة أم فى النظام العالمي المستقبل ، بل هو يرمى الى أعمق من ذلك أثرا وابقى على الزمان بقاء . وهو أن يسعى الافراد والجماعات والحكومات الى تربية الجيل على صورة تتدرج نتائجها للوصول الى الانسان المثالى . جعل هكسلى هذا المثل الاعلى فى الانسان الذى سماه « الانسان اللامرتبط » فى ذلك الانسان غير المرتبط باحساساته ورغباته الجسمية غير المرتبط بشهوته فى السلطة والحيازات المختلفة . غير مرتبط بموضوعات هذه الرغبات المختلفة ، غير مرتبط بغضبه وحقده ، غير مرتبط بحياته الخاصة ، غير مرتبط

بالثروة ولا بالمجد ولا بالوضع الاجتماعى ، غير مرتبط حتى بالعلم وبالفن وبالتأمل المجرد وبحب الانسانية . بذلك يصل المرء الى حيازة جميع الفضائل . وأن عالما مؤلفا كله أو جله أو على الاقل قادته من أفراد لهم هذه الفضائل، لجدير بأن يسمى العالم الكامل . غير أن هكسلى لم يخدع نفسه على امكان الوصول الى تلك الوسائل التى تربط نظريات السياسة الداخلية والسياسة الدولية والحرب والاقتصاد والتربية والدين والادب كل أولئك بنظرية الطبيعة الآخرة للحقيقة . بل قال فى آخر كتابه . «لاشك أن هذه المهمة قد نفذت على وجه ناقص . على أنى لا أعتذر عن محاولتى اياها فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلى

ونحن من جانبنا نترك الى الزمان الطويل تحقيق الرغبات الشريفة لهذا المؤلف ، ونقبل على مذهب أقرب تناولا ونقنع بالهدف الحاضر وهو التعاون العالمى الذى ارتضته السياسة الدولية للامم المتحدة . فماذا ينبغى أن تكون الاخلاق لتحقيق هذا التعاون

اذا كان هكسلى يعتد هكذا بسمو النفس الانسانية فى طبيعتها الى حد أنه يرى من الممكن أن تتحقق نظرياته ، فليس فى ذلك الا قريبا جدا من رأى الفيلسوف « كنت » فى سمو الطبيعة الانسانية حين يقول : «ليس فى الاستعدادات الطبيعية للانسان شىء من مبدأ للشر . وأن السبب لوحيد للشر هو الا يرد الطبع الى قواعده . الا أن الانسان يس فيه من أصل الا للخير . ليس لهذا المعنى فقط أرى ن أختار منهاج « كنت » مرجعا لصورة هذا البحث الذى بحثه . بل أيضا لانه صاحب فكرة الحكومة الدولية لعامة . وبهذه المثابة قد يكون منهاجه الاخلاقى أقرب لمناهج نسبا للتعاون العالمى . وقد يكون فوق ذلك هو

المناسب لاعتقادات الناس فى هذا الزمان

لتحقيق التعاون العالمى ينبغى أن تقوم كل أمة بواجباتها نحو ذاتها وواجباتها نحو الامم الاخرى

فأما فضائلها الذاتية أو واجباتها نحو ذاتها فالقيام بها اظهر ما يكون فى التربية وفى صور الحكم

أما التربية فانها فى كل العصور وسيلة لتحقيق غاية معينة . فترون الدكتاتوريات تنشىء أجيالها تنشئة اسبرطية محضة لان غايتها استكمال ما تستطيع من قوة لتبسط سلطانها على العالم كله أو بعضه . فتجردهم من حرية التفكير الشخصى وحرية النقد وحرية الاجتماع لتبادل الآراء وتنمى فى أنفسهم مبادىء القومية الحادة والاستهانة بحقوق الغير والطاعة العمياء . وبالجملة تكون غاية التربية غاية حربية صرفة أو بعبارة أدق غاية الاعتداء على الاغيار وما فى أيديهم . وليست الديمقراطيات مع الاسف بأحسن حالا من ذلك الا قليلا . فان التربية فيها مع ما بها من الحريات الفردية موجهة الى الحرب أيضا . وفى مثلها العليا نماذج من أبطال الحروب الاولين والآخرين . فمناط المثل الاعلى فى التربية الحاضرة بطل قتل فى ساحة الحرب من اخوانه فى الانسانية اكبر عدد ممكن . لا شك فى أن هذه التربية لا يمكن أن تكون غايتها التعاون العام أو السلام الدائم . بل لا بد للعالم ، وقد اعتزم التعاون العام ، أن يغير غاية التربية ، فيستن نوعا من التربية يؤدى الى حب السلام لا الى حب الحرب . يؤدى الى تحقيق الاخاء الانسانى . يؤدى الى ترك المبالغة فى الاعتزاز بالاجناس وترتيبها ترتيبا تحكميا عسى أن يكون الجنس الاخير منها خيرا من الجنس الاول المزعوم . وبالجملة ينبغى أن تترك الى جانب عصبية الانسان الاولى للقبيلة ولمعبودها المحلى الذى صنعه الانسان بيده ، الى

ما يقتضيه الاخاء الانساني والتعاون العالمي من احترام لجميع الاجناس وسعى فى اسعاد من قضت عليه المصادفات الشقية بأن يكون فى سلم المدنية متأخرا عن سواه

الانسان المثقف

على هذا يجب على الامة فى تربية أبنائها أن تكون غايتها « الانسان المثقف » ووسيلتها الى ذلك :

١ ـ تثقيف ملكات الفرد الطبيعية : ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقتناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف ، بل ينفق بالمعروف . وواجب كرامته من حيث هو انسان فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الاداء وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتى من عمل . وضابط ذلك كلمة أفلاطون المعروفة « تعرف نفسك بنفسك » أن تعرفها بالدرس الدائم لحالها وسبر غورها فى أعمق طياتها . ثم ينبغى أن يؤخذ الناشىء بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون . قال « كنت » : من ليس مثقفا فهو بهيمة . ومن ليس مؤدبا فهو متوحش

٢ ـ كذلك ينبغى أن تؤخذ الافراد فى التربية بتعلم القيام بواجباتهم نحو الغير ، مثل حب الانسانية ويعنى به العدل ورعاية الغير وعرفان الجميل والسخاء والمواساة فى الضراء واحترام الاغيار فى أشخاصهم وشرفهم وأموالهم واحترام قوانين البلاد سرا وعلانية . وينبغى فى تثقيف هذه الثلاثة الانواع من الملكات الطبيعية أن يكون ذلك على

يد أساتذة أحرار فى مدارس حرة ليست تابعة مباشرة لسياسة الحكم كلما أمكن ذلك

***

وأما واجبات الامة من حيث صورة الحكم لتكميل ذاتها فينبغى أن تكون الامة دائما مصدر السلطات فى وطنها وأن يشترك أفرادها فى حكمها على الطرق الديمقراطية وأن يكون الحكم فيها لمنفعة المحكومين لا لمنفعة الحكام . وأن تكون ولايات الحكم ضرائب يؤديها الاكفاء من ابنائها لا مزايا يختص بها المقربون من السلطات . ويتفرع على ذلك أن طالب التولية لا يولى

هذا ما ينبغى من فضائل الامة أو واجباتها نحو ذاتها

وأما واجبات الامم بعضها نحو بعض ، فأول ما ينبغى هو ابطال هذا المذهب العتيق للسياسة الدولية مذهب الارتياب والدسائس والتجسس . وأن يستبدل بهنقيضه بأن تحل محل هذا المذهب الواجبات الادبية التىيفرضها قانون الاخلاق على الفرد نحو غيره، وهى تتلخص فىاحترام حقوق الغير والسعى فى اسعاده

على هذا النحو وعلى هذا النحو وحده يتحقق التعاون العالمى ، وتشمل نعمة السلام كل بنى الانسان

فهرس

	صفحة
تقديم بقلم الاستاذ طاهر الطناحى	٩
الفصل الأول : نشأتى الأولى	١٧
الفصل الثانى : اشتغالى بالسياسة	٣١
الفصل الثالث : اشتغالى بالصحافة ورأيى فى الخديو عباس	٤١
الفصل الرابع : لورد كرومر أمام التاريخ	٥١
الفصل الخامس : ردى على اللورد كرومر	٦٣
الفصل السادس : طالبنا بالاستقلال التام فقالوا خرجتم على الباب العالى	٧٩
الفصل السابع : ٤ رجال عرفتهم	٩٣
الفصل الثامن : رحلتى الى أوربا والى المدينة المنورة	١٠٧
الفصل التاسع : مع سعد زغلول والخديو عباس	١٣١
الفصل العاشر : عرفت تولستوى وفتحى زغلول	١٤٥
الفصل الحادى عشر : موقفنا من الحرب سنة ١٩١٤	١٥٩
الفصل الثانى عشر : فى ثورة سنة ١٩١٩	١٧١
الفصل الثالث عشر : من الجامعة الى الوزارة ...	١٨٣
الفصل الرابع عشر : من الوزارة الى المجمع الغوى	١٩٣
الفصل الخامس عشر : الاخلاق وكيف ينبغى أن تكون لتحقيق ســـــلام عالمى	٢٠١

كتاب الهلال يقدم

ضوء القمر

و

قصص اخرى

بقلم

أحمد حسن الزيات

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

يصدر ٥ مارس القادم

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنــــــان :	مكتب دار الهلال ـ شارع ابراهيم الحورانى صندوق البريد ٢١٩٦ ـ بيروت
العـــــراق :	السيد محمـــــــود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد
اللاذقيـــــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــدة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣
البحـــــرين :	السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١
البـــرازيل :	Dr. Michel H. Tomé, Paeto Do Colegio No. 3° Andar — Sala 9 SAO PAULO — BRASIL
غـــــانا :	Mr. Hussein Abi Hassan, P.O. Box 2561, ACCRA, GHANA
ســـيراليون :	Messrs. Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Siera Leone
ســـنغافورة :	M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit, Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجـــلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU, 7, Bishopsthorpe Road, London S. E. 26, ENGLAND
نيجـــيريا :	Mr. Mohamed Said Mansour, Atlas Library Company, 126, Nnamdi Azikiwe Street LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

قراءة التراجم وسير العظماء فى مقدمة وسائل الثقافة والمعرفة التى تكشف لك عن أنواع من الحياة مختلفة الالوان ، عديدة الدروس والتجارب فأنت حين تقرأ قصة نابغة من النوابغ أو سيرة عظيم من عظماء المجتمع تقف على ثروة نفيسة من الخبرة النافعة ، والتجارب المفيدة

وهذه قصة حياة عظيم من عظماء الشرق قام بدور كبير فى توجيه السياسة المصرية والحياة الفكرية والاجتماعية أكثر من خمسين عاما

وهى قصة حافلة بنواحى العظمة والوطنية الصادقة ، رواها أستاذ الجيل لرئيس تحرير سلسلة كتاب الهلال ، ثم استأذنه فى طبعها ونشرها فى هذه السلسلة الثقافية ، فأذن له لتكون مثالا حسنا يقتدى به شباب الجيل والاجيال القادمة

ان سلسلة كتاب الهلال تعتز بنشر هذه القصة الوطنية ، وان رئيس تحريرها ليفخر بهذا الشرف الذى أتاحه له لطفى السيد ليقدم سيرته العظيمة الى العرب

Bibliotheca Alexandrina
02481145